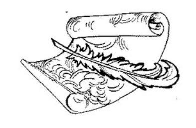
الأعلام من الأدباء والشعراء



حسان بن ثابت الأنصاري

حياته وشعره

اعداد
يوسف عيسى
...از في اللغة العربية وآدابها





دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

حسان بن ثابت الأنصاري

حياته وشعره

اعداد

يوسف عيسى

مجاز في اللغة العربية وآدابها



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

ـ المقدّمة

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم

ـ الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسّلام على سيّد المرسلين نبينا محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين، وبعد، فإن حسّان بن ثابت واحد من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام وكان له في كليهما حياة صاخبة وأثرٌ خالدٌ، فقد قدّر للرجل أن يقف على الحياة الجاهلية وعاداتها وتقاليدها فيصوّرها بشعرٍ لا يختلف عن شعر معاصريه إلاّ بما بثّه فيه من فخر بقومه واستعلاءٍ بهم على كلّ رفيع، كما قدّر له أن يدرك الإسلام ويهتدي بأنوار الدعوة المحمّدية، فيفـارق سُبُل الضلال، ويلتجىء إلى حمىً منيـع نال من خلاله حظّاً وافراً من الخير والذكر، فقد آمن الرجل بالرسالة المباركة، وسخّر قلمه ولسانه في سبيل الـذود عنها حتى صـار شاعـر الـرسـول الكـريم ﷺ والمنـافـح عنـه والـذّاب عن المسلمين ضـد كثيـرٍ من الـطغمـة والكفـار والمتربّصين. وإذا كان حسّان في شعره قد استنّ السنن التقليدي، ومشى لاحباً مهّده الشعراء السابقون له، فمدح

وافتخر، وهجا ورثى وتغزّل، ووصف وتأمّل، فإنّه لم يأل جهداً إلا وبذله في سبيل تهذيب شعره وتنقيته والتفنّن فيه، فكان الشاعر الأول الذي ابتدع فنّ النقائض وأكثر منه في الشعر، كما كان الشاعر الذي حمل لواء الشعر الديني، فوطّده وأعلى رايته بما ضمّنه من معين الإسلام الثر وصوره الفذّة وحكمه الخالصة.

وإذا كان لنا من كلمةٍ أخيرة نقولها في حسّان وشعره، فإنها لن تكون إلاّ الكلمة التي تفي الرجل حقّه ولا تبخس قدره وفضله، فقد كان الرجل يتمتّع بشاعرية رائعة ومقدرة على النظم رحبة، كما شدّ من أزرها خيال محلّق استقى من حضارة عصره ما لوّن صوره، كما استقى من أنوار الدعوة المباركة ما أعانه على التحليق في ذرى الوحي ورحاب الإيمان.

يوسف عيسى

ـ العصر الجاهلي.

ـ كان العرب قبل الإسلام أمةً بدويةيحيون حياة طبيعية تلائم بيئتهم الخاصة، فالصحراء الواسعة تحيط بهم، وتكتنفهم كثبان الرمال الواسعة، وتظلهم السماء الصافية ويجنّهم الليل الساجي، ويؤنسهم القمر المضيء، وتحرقهم الشمس اللاهبة، وتتجاوب حولهم أصوات الحيوانات والوحوش، وتجري الرياح عاتية مزمجرة، حتى إذا أقلّت سحاباً تتبعوا مساقطه، ورعوا ما تنبت الأرض من آثاره، فالجدب شامل والحياة بخيلة، الإبل عماد حياتهم والخيل معقل فرسانهم، وفي الأنعام رزقهم، منها يأكلون ويلبسون ويتخذون المتاع، يحيون حياة قاسية كما تحيا سائر الكائنات في الصحراء في حرّية لا يقيّدها قيد ولا يحدّ من جموحها مانع، الفطرة قانونهم وتنازع البقاء سبيلهم، والقبيلة هي الدرع الحصينة التي تحمي جماعاتهم، بها يلوذون، وعنها يدافعون، ومن هذه البيئة نشأت عاداتهم ونبتت أخلاقهم وتوطّدت عرى أعرافهم وتقاليدهم ولن نتحدث عن البيئة الجاهلية حديثاً جغرافياً بحيث نرسم جغرافياً حدودها وأقسامها ونستعرض أهلها وسكانها وأحوالها الإجتماعية

ولكنّا سنقتصر الحديث على معارف أولئك القوم وخاصة الشعر وفنونه، لأن الشعر كان مرآة تلك الأمة والمصوّر الحقيقي للبيئة الجاهلية وما كان يدور فيها من أحداث، فضلاً عن كونه العلم الذي لم يكن لهم علم أصح منه، فلو نظرت إلى ذلك الشعر بعين متفحّصة لـوجدت على صفحـاته وخلال قصائده ومقطوعاته صوراً صادقة لتلك الحياة العربية تكاد تترسّم فيها عاداتهم وتقاليدهم ومواقع ديارهم وآثار طلولهم وموارد مياههم وملاعب ولدانهم ومجالس سادتهم وذكر مواقعهم وصور معاركهم ووضوح أخلاقهم ومشارب أنفسهم، فالشعر الجاهلي يكاد يكون صورة لكلّ تلك الحياة التي عاشها أولئك القوم في باديتهم، يتمثل فيها الطلل والوحش والحصان والناقة والليل والرمل والغيث والسحاب والسماء والنجوم والمناقب والشمائل والتقاليد والأعراف، إنه يرسم حياتهم بكل تفاصيلها وأبعادها وما كان يدور فيها من أحداث ووقائع.

فنون الشعر الجاهلي:

إن المتأمّل في الشعر الجاهلي سوف يدرك تماماً أن طبيعة الحياة العربية تتمثّل بكلّ قيمها وأعرافها في فنون ذلك الشعر وصوره الحيّة، وقد كانت فنون ذلك الشعر دائرة بين النسيب والفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف، كما كان

يتخلّلها كثير من شعر الحكمة والاعتذار، وقد درجت تلك الفنون على سنّة معيّنة من النظم لم يخرج عن إطارها إلاّ القليل النادر من القصائد فقد كانت القصيدة الشعرية تتوزّع إلى موضوعات متعدّدة وتتناول في أبياتها أغراضاً شعرية متنوعة، وهي في مجملها تنقل الواقع المحسوس نقلاً أميناً يكاد لا يتجاوز ما تراه العين ولا يبتعد عن دائرة المشاهد الذي يرسمه الشعراء في صور لا تخلو من الفطرية والسذاجة البدوية، فالمعاني بسيطة غير مغرقة في الخيال والجمل خالية من الغلوّ المفرط إلاّ ما ندر، وهي في أكثر أحوالها تصوّر عواطف نفوسهم وما يختلج فيها من صدق وإخلاص وبساطة وعفوية، فهم لا يتكلّفلون في قولهم كما لا يتكلفون في لباسهم وطعامهم وشرابهم وسائر أمورهم وكان رائدهم بيت زهير بن أبي سلمى الذي يقول:

وإنّ أشعر بيتٍ أنت قائله
بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا

ويمتد أثر بيئتهم إلى منهج القصيدة وكيفية تأليفها، فقد كان البدو أكثر الناس حبّاً وأشدّهم هياماً ووجداً، وقد جاءهم ذلك من طريقة حياتهم وطبيعة وجودهم التي لم تكن لتخضع لقيود، فانطلقوا في ذلك انطلاقاً عفوياً وجروا مع عواطفهم دون أن يحدّ منها أي مانع، فهم أهل نجعة كانوا يلتقون فيها فتحدث المودات ويحلو الأنس والسمر، وتتوطّد العلاقات

وتأتلف الأنفس، وكذلك هم أهل رحيل وانتقال، فإذا ما افترقوا تجدّد في النفوس الشوق والحنين والأشجان، وذكر كلّ إلفٍ إلفه، وغنّى كل شاعرٍ حبيبه وبثه لواعج نفسه وأشجان هواه، ولذلك كان النسيب والتشبيب والتغزّل عندهم من أهم فنون القول، يفتتحون به قصائدهم وينتقلون بعد ذكره إلى أغراض أخرى، لمكانه من قلوبهم، ولما فيه من راحة للنفس وامتاع للمشاعر وإثارةٍ للخواطر والمواجد، وقد كانت المرأة تجسّدً الجمال الأوحد في الطبيعة البدوية ولذا كان العربي في شعره وحديثه يركّز عليها، ويذكرها في كلّ المناسبات عند الافتخار والحديث عن الشجاعة والكرم، وعند الصبابة والعشق ومقارعة الأبطال، وفي مواطن حلّه وترحاله، إنها صاحبة المقام الأول في الشعر، والغرض الذي يفتتح به الطريق إلى سائر الأغراض والفنون الأخرى.

أثر الإسلام في الشعر وموقفه منه:

إن الحديث عن أثر الإسلام في الشعر ضروريّ لأننا سوف نتحدث فيما بعد عن شاعر الإسلام الأوّل حسّان بن ثابت الذي ذبّ عن الإسلام بشعره ودافع عنه طوال حياته التي عاشها في الإسلام، ولذلك كان ضرورياً أن نتحدث عن ذلك الأثر الذي كان فاصلاً في حياة أولئك الأسلاف، فقد كان أكثر شعراء الجاهلية من الأشراف والسادة وأهل

الفروسية والحرب وأكثر شعرهم في الحماسة والفخر بالأيام والعصبيات والمآثر، والتطاول بأنسابهم والتعصب لقبائلهم، والتباهي بالحروب والانتصارات على الأعداء هذا فضلاً عن ذكر الخمر وتزيين الإقبال عليها، وذكر الغزل الماجن والهجاء المقذع الذي يتناول الأعراض والأحساب، فلما جاء الإسلام بتعاليمه الجديدة التي تتعارض كلّياً مع بعض اتجاهات ذلك الشعر ومناحيه، وكان هدفه تطهير النفوس من آثار العصبية الجاهلية ومحاربة تلك المنازع البدوية، وتخليص القوم من الوثنية الجاهلية، وإرساء قواعد الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء التي تجمع العرب على كلمة سواء فيها كلّ الخير لهم، وتطهّر نفوسهم من الأدران والأمراض والتقاليد التي لا تتناسب مع واقع الحياة الجديدة، لم تبق تلك الحاجة الملحّة إلى الشعر والشعراء، وهان أمره وأمرهم، واشتغل أكثر العرب بالجهاد والفتوحات، وانصرفت القرائح الشاعرة إلى الخطابة لحاجة المسلمين إليها لأنها أقوى دليلاً وأدمغ حجّة وأشدّ بياناً وإيضاحاً وإلماماً وتفاصيل، وأمضى سبيلاً في إثارة الهمم وتوجيه الناس وحثهم على الغزو والجهاد في سبيل الله، فأصبحت الخطابة سبيل الرسول إلى نشر تعاليم الدين الجديد كما كانت سبيل الخلفاء والرسل والقادة من بعده، يخاطبون بها العقول، ويقرعون بها الأسماع.

القرآن والشعر:

لقد نزل القرآن على الرسول ﷺ بلسانٍ عربيٍّ مبين وهو في أمّة عربية خالصة، كان الكلام أرقى صناعتهم وأعظم علومهم وأجلّ بضاعتهم، وكان العرب أهل بلاغة وأمراء بيان ورجال كلمة، وكان الشعر ميزان القول عندهم، كما كان ديوانهم الذي يجمع مكارمهم ومفاخرهم وأيامهم، وكان له في نفوسهم المقام الأول والأثر الأعظم فلما سمعوا القرآن الكريم وأنصتوا إلى آياته البيّنات وأدركوا بما عندهم من فطرة وموهبة أسرار بلاغته وبيانه، بهرتهم آياته وأذهلتهم سوره وكلماته، فأسلم له من استضاءت بصائرهم وأذعن لحكمه وآياته من أوتي نصيباً من العقل وحظّاً من الفهم والمعرفة، ونزع الله الغشاوة عن قلبه، وصدّ عنه من ارتضى المكابرة والضلال والجهل والحماقة، وقد شغل القرآن الكريم العرب وصرفهم عن الولوع بالشعر والتنافس فيه، وحوّل أفكار المؤمنين عن فنونه وأغراضه المنحرفة عن قيم الإسلام وأعرافه وشرائعه، وبغض إليهم تلك الفنون الجامحة ما جاء في القرآن الكريم من آيات تذكر الشعر والشعراء، وتنفي أن يكون التنزيل الكريم شعراً أو أن يكون الرسول ﷺ شاعراً، وليس في ذلك طعنٌ على الشعر، بل هو إقرار لواقع لا شك فيه، فالقرآن صورة بيانية فريدة تبعد كلّ البعد أنَ تكون شعراً أو سجعاً كسجع الكهان، وهما لونان

معروفان عند العرب في الجاهلية، وكان المشركون من العرب يريدون التهوين من شأن معجزة الرسول فراحوا يصفون القرآن بالشعر، ولهذا جاءت الآيات في نفي أن يكون القرآن شعراً منسوبة إلى مشركي العرب كقوله تعالى «بل قالوا أضغاث أحلامٍ بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» وقوله: «ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» والآيات في هذا المعنى كلّها للدلالة على نزولها في وقت المعارضة الشديدة من جانب قريش لما جاء به القرآن من دعوات إلى الإيمان والتوحيد والإسلام، أمّا قوله تعالى في سورة الشعراء: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنّهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون» فهو من الآيات المدنية، على الرغم من أن بقيةَ آيات السورة نزلت في مكة، والقصد منها خاص وعام، أمّا الخاص فهو وهم شعراء الكفار الذين أخذوا يناصبون الإسلام والرسول العداء، وأما المقصد العام فهم الشعراء الذين لا يلتزمون بالقواعد الأخلاقية للإسلام، فيذكرون في الهجاء الأعراض والطعن في الأنساب، ويضمنون الغزل الكلام الفاحش البذيء، ويذكرون الناس بما ليس فيهم ويفتخرون ادعاءً وكذباً أمّا الغواة الذين تشير إليهم الآيات فهم الأعراب الذين

كانوا يجتمعون إلى شعراء قريش المشركين ليستمعوا إلى أشعارهم في هجاء الرسول ودعوته، وأمّا الشعراء الذين استثنتهم الآيات فهم شعراء المسلمين خاصة الذين دافعوا عن الرسول والدعوة، والشعراء الذين يكتبون في الحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، وقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «إنّما الشعر كلامٌ مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق منه فلا خير فيه».

وهكذا يبدو أن الإسلام لم يهوّن من أمر الشعر لأنه في ذاته فنّ من القول ممقوت، ولم يذمّ القرآن الشعراء لأنهم أهل صناعة بائرة وحرفة منكرة، وإنّما كان ذلك لسببين اثنين: أحدهما راجع في الشعر لمعناه، والآخر لمبناه، أمّا الأول فلأن أغلب الشعر كما تقدّم كان أداة، تخدم الأغراض الجاهلية وتثير كوامن العصبية وتغذي طبائع التناحر البدوية وتوقظ الفتن الراقدة، بما فيه من تفاخر وتطاول وملاحاة وهجاء وتزيين للباطل وتحسين للمحرّمات والإسلام كما نعلم يعمل على نزع تلك العادات من النفوس ويجهد لتغيير تلك الأخلاق واستلال سخائم النفوس والانتقال بالعرب إلى وحدة ترأب الصدع وتلمّ الشتات وترسي قواعد المجتمع على أسس جديدة من العدل والإيمان والسلام، فالذمّ قد تناول الشعر من ناحية أغراضه وموضوعاته لا من حيث هو شعر خالص، وأمّا الآخر فلأن العرب كانت أمّة خيالية

حماسية شاعرة تستهوي نفوسهم الكلمة المنظومة التي تسير في الآفاق والنفوس بسرعة وإقبال، فللشعر سلطان كبير على عقولهم وأثر عميق في نفوسهم وقد كان من جهة جرسه ونغمه ونظمه وحسن تأليفه المثل الأعلى للبلاغة العربية، فلما نزل القرآن سمعوا به قولاً عجباً اهتزت له مشاعرهم ووقفت عند آياته أسماعهم مصغية لما فيه من سحـر وبلاغة وروعة حتى قال قائلهم: «والله إن لقوله حلاوة وإن أصله لَعَذْق[1] وإن فرعه لجناة[2] وما أنتم بقائلين من هـذا شيئاً إلّا عُـرف أنه بـاطل، وإن أقـرب القول فيـه لأن تقـولـوا: ساحر»[3].

فذمّ الله الشعراء ونفى الشعر عن النبي، تكذيباً لما زعمه المشركون من أنّه شاعر، وليؤكد أن القرآن ليس من ذلـك الطراز الشعري الساحر الذي يؤثر في النفوس بوزنه ونغمه وقوافيه، وبما فيه من تخييل وتزيين، وليدفع عن النبي مظنّة اصطناعه لأنه ليس بشاعر، فأبعد بذلك القرآن عن نطاق الشعر وأسباب تأثيره، كما أبعد الشعر عن نطاق القرآن وأسباب إعجازه.

---

(١) العَـذْقُ: بالفتح: النخلة عند أهل الحجاز. (اللسان: مادة عذق).
(٢) الجناة: ما يجنى.
(٣) راجع تهذيب سيرة ابن هشام ص٦٠ تحقيق عبد السلام هارون.

الرسول والشعر:

إن موقف الرسول ﷺ من الشعر كان موقفاً ينبع من صميم الدعوة الإسلامية المباركة التي توجب أن تتضافر كل الإمكانات المتاحة في سبيل إنجاحها وتجذيرها في المجتمع والنفوس، وكان الرسول يرى أن يردّ شعراء المسلمين على اعتداءات الكفّار ويذبّون بألسنتهم عنه بما لا يتنافى مع تعاليم الإسلام بحيث يحرص الشعراء على توجيه أشعارهم إلى الكافرين دون خروج على القيم والمثل والأخلاق الإسلامية، منطلقين من الآية القرآنية المباركة: «لا يحبُّ الله الجهر بالسّوء من القول إلاّ من ظلم» وقد كان الرسول ﷺ يستمع إلى الشعر ويتذوّقه ويستنشد قائليه ويثيبهم عليه، و«إنّ من البيان لسحرا»[1] وكان الرسول ﷺ يطلب من حسّان بن ثابت أن يردّ على شعراء المشركين ويقول له: «اهجهم وروح القدس معك»[2] وكان «يضع له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ»[3].

ونرى الشعراء في عصر الرسول يتوجّهون بمديحهم

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص١٢ ـ دار المسيرة.
(٢) جمهرة أشعار العرب ص١٣ .
(٣) أبجد العلوم ص٢٠٣ طبعة بهوبال الهند ١٢٥٩ هـ .

إليه، ونلحظ في مدائحهم تطوراً واضحاً من ناحية رقة اللفظ والاهتمام الرئيسي بالفكرة دون بهرجة الكلام وتزييفه، مع التأثر بالمضمون الإسلامي الجديد، كما كان الرسول ﷺ يسأل الشعراء ويستفسر منهم عن ذلك المضمون، فقد أنشد النابغة الجعدي رسول الله ﷺ قوله:

بلغنـا السّمـاء مجـدُنـا وجـدودنـا
وإنّـا لنـرجـو فـوق ذلـك مـظهـراً

فأعجب الرسول به وقال له: فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنّة بك يا رسول الله؟ قال: نعم إن شاء الله، فقضى له بالجنة بسبب شعره، فلما قال:

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له
بـوادر تحمي صفـوه أن يكـدّرا
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له
حليمٌ إذا مـا أورد الأمـر أصـدرا

فقال له النبي ﷺ: أجدت، لا يفضض الله فاك، قالوا: فلقد رئي وقد أتت عليه مائة سنة أو تزيد وما انفضّ من فيه سن.

وينشد حسان بن ثابت الرسول قوله وهو يجيب عنه أبا سفيان بن الحارث:

هجـوتَ محمّـداً فـأجبت عنـه
وعـنـد الله فـي ذاك الـجـزاء

فقال له الرسول: جزاؤك عند الله الجنة يا حسان، فلمّا قال:

فـإنَّ أبـي ووالـده وعـرضـي
لـعـرض محـمّـدٍ مـنكـم وقـاءُ

قال له: وقاك الله حرَّ النار، فقضى له بالجنة مرّتين في ساعة واحدة وسبب ذلك شعره.

وحادثـة كعب بن زهير معروفة تذكرها كلُّ كتب التاريخ والسّيرة، فقد هجا كعبٌ الرسول، فأهدر الرسول دمه، فما كان من كعبٍ إلاّ أن جاء أصحاب النبيّ متوسّطاً ومستشفعاً حتى أقبل على الرسول عائذاً به منشداً قصيدته المشهورة:

بـانت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول
متيَّمٌ إثـرهـا لم يـفْـدَ مكبـول

إلى أن يقول:

إن الـرسـول لنـورٌ يستضـاء بـه
مـهنّـدٌ مـن سيـوف الله مـسلول

فيجزيه الرسول على قصيدته بالعفو عنه، ويخلع عليه بردته ثواباً له.

وهكذا فإن الرسول كان يرى في الشعر حكمة وتجربة وجمالاً وكان يستعذب منه الشعر الذي يتوافق مع المضمون الإسلامي الجديد، ويراه سلاحاً هاماً في محاربة المشركين

أو نوعاً من أنواع الجهاد في سبيل الله، فاستخدمه أداةً من أدوات الإسلام السياسية في حربه مع الكفار، وكان له وقعٌ على الكافرين أمضّ وأقسى من وقع السيف، وهذا الموقف من الرسول قد ساعد الشعر على البقاء والاستمرار، وجعل العرب رغم مشاغلهم الكثيرة لا ينسون روايته ولا يقلّلون مكانته.

الرسول وقول الشعر

كان رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب لا ينشده بيتاً شعرياً إنشاداً سليماً، بحيث يحافظ فيه على تمام الوزن وإنما كان ينشد الصدر أو العجز من البيت، أو ينشد البيت مخالفاً لصورته التي نظم فيها، فقد ذكر أنه كان يقول: أصدق كلمةٍ قالها الشاعر، كلمة لبيد:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل.

ثم يسكت عن عجز البيت، وقالت عائشة: كان النبيّ يتمثّل من الشعر ببيت أخي بني قيس طرفة العبدي فيقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله، فقال: «إنّي لست بشاعر، ولا ينبغي لي» تصديقاً لمضمون الآية الكريمة «وما علمناه الشعر وما ينبغي له».

ولم يجرِ على لسانه ﷺ ممّا صحّ وزنه إلّا البيت من الرجز المنهوك والمشطور، كما جاء عن البخاري ومسلم أنه قال:

أنــا الــنــبــيُّ لا كــذب
أنــا ابــن عــبــد الــمــطلب

وذلك لأن الرجز في أصله ليس بشعر، إنّما هو وزن كأوزان السجع ومنزلته بين الشعر والنثر، ولأن الشطرين منه كالشطر من الشعر، حتى إن الخليل لم يعد المشطور منه شعراً، وقد وقع هذا القول للنبي اتفاقاً كما يتفق المسجع في النثر، من غير قصد إلى الوزن ولا تكلّف للقافية، أمّا أصحاب الرسول ﷺ فإنّهم في مجملهم قد ذكروا الشعر وتمثلوا به ونظموا بعضاً من الأبيات أو القصائد، فقد كان أبو بكرٍ يقول الشعر وكذلك عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب، وغيرهم من الصحابة وتذكر كتب التاريخ والأدب لهم أقوالاً كثيرة تنمُّ عن ذوقهم وحسن إجادتهم له.

حسّان بن ثابت

سيرته وحياته

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي، والخزرج هو ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد من بني كهلان، وأمّه الفريعة بنت خالد بن خُنيس الخزرجية،\ من بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، فهو نجّاري، خزرجيّ النسب أمّاً وأباً، وكنيته أبو الوليد، وأبو عبد الرحمن وأبو الحسام وأبو المضرب، وقد ولد حسّان بالمدينة عام ٥٦٣م، وقد نقل ابن هشام عن حسّان قوله: والله إني لغلامٌ يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كلّ ما سمعت، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: «يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك. مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به» فلما سئل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن عمر حسان مقدم رسول الله ﷺ المدينة قال: ستون سنة، وقدِمها الرسول وهو ابن ثلاث

وخمسين فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين، فهو إذاً قد ولد قبل الرسول بما يقرب من سبع سنين ومولد الرسول كان عام ٥٧١م.

أمّا قوم حسان فهم من سادة اليمن وأهل الرياسة فيها وقد نزحوا إلى شمال الجزيرة العربية بعد خراب سدّ مأرب وتفرقوا هناك فكان بالمدينة منهم الأوس والخزرج، وكان بالشام منهم الغساسنة وفي الحيرة بنو لخم، وفي بعض اشعاره يذكر انتسابه إلى اللخميين وإلى الغساسنة ويخلط نسبه بنسبهما، وكان لقبيلته الخزرج السيادة في المدينة، كما أنّها كانت على خلافٍ مع قبيلة الأوس، ولكنّ الإسلام أعاد إلى القبيلتين الوحدة وألّف بين القلوب برحمة من الله، وكان الخزرج دائماً ممتلئين اعتزازاً وسؤدداً وشعوراً بالسيادة والاستعلاء، فهم أهل الشرف والمجد والعدد والرفعة، وأهل السيف والقوة والمكانة، وقد سرى هذا الشعور إلى نفس حسان، فتملكتها نزعة السيادة والترفع، وتجلّت واضحة في أكثر أشعاره فهو الذي يقول:

ويثربُ تعلم أنّا بها
إذا التبس الأمر ميزانُها[1]

(١) التبس الأمر: أي اشتدّ.

ويـشـرب تـعـلم أنّـا بـهـا
إذا قـحط الـقـطر نـوآنُـهـا[1]
ويـشـرب تـعـلم أنّـا بـهـا
إذا خـافت الأوس جيـرانُـهـا

وكان بنو النجار يمثلون ذؤابة الخزرج فهم أهل الكثرة والمحلّ الأرفع، ولهم في آل هاشم بن عبد مناف رحم، وبرسول الله قرابة، وفيهم نجدة وبأس وسيادة وكرم، وكان لهم في أيّام الأوس والخزرج بلاءٌ حسن وفيهم يقول حسان للأوس:

يـطيفُ بكـم من الـنّجـار قـومٌ
كـأسـد الغـاب مسكنُها العـرين

وكان لبيت حسان في قومه مكانة وسيادة وشرف، وقد كان جدّه المنذر خطيب القوم يـوم سُميحة[2] وكان الحكم الفيصل الذي التقت عليه الخصوم، وقضى فقبل الأوس والخزرج قضاءه، بعد أن ردّوا قضاء غيره، واحتمل في قومه نصف الدّية معونة لإخوته من الأوس، أمّا أبوه ثابت فهو من سادة قومه وأشرافهم، أسرته مزينة مـرّةً فعرض عليهم الفـداء، فقالوا: لا نفاديك إلاّ بتيس، ومزينة تسبّ بالتيوس،

---

(١) نوآنها: جمع نوء وهو المطر.
(٢) سُميحة: بئر قرب المدينة.

فأبى وأبوا، فلما طال مكثه في القيد أرسل إلى قومه أن أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم، وهكذا كان.

شاعِرية أسرته:

يقول أبو عباس المبرّد: وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنّهم يعتدّون ستة في نسق، كلهم شاعـر، وهم: سعيد بن عبد الـرحمن بن حسّان بن ثـابت بن المنذر بن حرام، وكان خاله مسلمة بن مخلّد بن الصامت الساعدي من خطباء الأنصار المعدودين، ويقـول حسّان في جـدّه وعمّه:

وجدّي خطيب الناس يوم سُميحـه
وعمّي ابن هِنْـدٍ مطعمُ الطيرِ خالدُ

ويذكر أفضال والده على قومه فيقول:

نشـدْتُ بني النّجار أفعـال والـدي
إذا لـم يجدْ عانٍ له من يوازعـه[1]

وقد تأثر بهذه الشاعرية نساءُ آل حسان، فهذه أخته خولة تقرض الشعر، وكذلك كانت ابنتِه ليلى شاعرة، فقد ذكر الأصمعي أن حسّان جلس يوماً ومعه ابنته ليلى فجعـل يريد الشعر فقال:

---

(١) العاني: الدّم السائل، ويوازعه؛ يكفُّه ويمنعه.

متاريكُ أذنـاب الأمور إذا اعتـرت
تـركنـا الفـروع واجتثثنـا أصــولهـا

ثم جعل يريد الزيادة فلا يقدر، فقالت له ابنته: يا أبتاه، كأنك قد أجبلت[1] أفأجيز عنك؟ قال: نعم فقالت:

مقاويلُ بالمعروف خرسٌ عن الخنا
كـرام يعـاطــون العشيـرة ســولهـا

فحمي حسان فقال:

وقــافيــةٍ مثــل السّنــان رزينــةٍ
تنـاولتُ من جـوّ السّمـاء نـزولهـا

فقالت:

يراها الـذي لا ينطق الشّعـر عنده
ويعجــز عن أمثـالــه أن يقـولهـا

فقال: لا والله، لا قلت بيت شعر ما دمت حيّة، قالت: أوَ أؤمّنك؟ قال: فذاك. قالت: فأنت آمـن أن أقول بيت شعر ما حييت.

وهكذا يبدو أن حسان قد نشأ في بيت سيادة وأدب فقد جمع المجد من طرفيه، وعاش في صباه حياة مترفة، وذاق طعم النعيم وأقبـل على اللهو والشـراب والفراغ،

(١) أجبلت: اي اخفقت.

واستمتع بما أحبّ أن يستمتع به من غواية وصيد ولعب وشزاب، كما حمل لواء الشعر في قومه فردّ عنهم وذكر أيامهم وأمجادهم، وتذكر الروايات اعتداد حسّان بشعره وبأنه عندما وجد القدرة في نفسه على عرض بضاعته الشعرية قصد سوق عكاظ حيث كان يجتمع الشعراء، وكان النابغة تضرب له هناك قبّة من أدم فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فدخل عليه وقد أنشده الأعشى شعرهُ، ثم أنشده حسان وأنشدته الشعراء، ثمّ أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السّلمية قولها:

قذىً بعينيك أم بالعين عُوَّار
أم ذرّفت قد خلت من أهلها الدار[1]

حتى انتهت إلى قولها:

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به
كأنّه علمٌ في رأسه نار

فقال النابغة: والله لولا أنّ أبا بصير «أي الأعشى» أنشدني قبلك لقلت: إنك أشعر الناس، فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

---

(١) القذى: ما يقع في العين من أذىً، والعوّار: وجع في العين مثل الرّمد، وذرّفت: سال دمعها.

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضُّحا
وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

فقال يا ابن أخي، إنّك لا تحسن أن تقول:

فإنّك كالليل الذي هو مدركي
وإنْ خلتُ أنّ المنتأى عنك واسع
خطاطيفُ حجنٍ في حبالٍ متينةٍ
تُمدُّ بها أيدٍ إليك نوازع(١)

فخنس حسّان لقوله.

وفي حادثة أخرى يذكر حسان أنه قدم النابغة المدينة، فدخل السّوق فنزل عن راحلته ثمّ جثا على ركبتيه، ثمّ اعتمد على عصاه ثمّ أنشأ يقول:

عرفت منازلاً بعُريتناتٍ
فأعلى الجزع للحيّ المبنِّ(٢)

فقلت: هلك الشيخ، ورأيته قد تبع قافية منكرة، فما زال ينشد حتى أتى على آخرها، ثم قال: ألا رجلٌ ينشد، فتقدّم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشده:

---

(١) خطاطيف: الواحد خطاف، حديدة حجناء، والحجناء: الملتوية والمعوّجة ونوازع: جواذب.

(٢) عريتنات: اسم وادٍ، والمبنّ: المقيم.

أتعـرف رسمـاً كـاطّـراد المـذاهب
لعمـره وحشـاً غيـر مـوقف راكب[1]

حتى فرغ منها فقال النابغة: أنت أشعر الناس يا ابن أخي، قال حسان: فدخلني منه[2] وإني في ذلك لأجدُ في نفسي القوّة عليهما، ثم تقدّمت فجلست بين يديه، فقال: أنشد، فوالله إنّك لشاعرٌ قبـل أن تتكلّم، قال: وكان يعرفني قبل ذلك، فأنشدتـه، فقال: أنت أشعـر الناس. هـاتان الحادثتان، وغيرها من الحـوادث الكثيرة التي تجمع على شاعرية حسّان وفضله تؤكد جميعها على أن باع حسّان كان طويلاً في القريض،وقد أسهم بقســطه الوافر في الدفاع عن الإسلام، كما أسهم قومه أولو السيادة والشرف في تعزيز منعته وتوطيد دعائمه.

حسّان والإسلام

لم يكن حسّان إلاّ شاعراً كغيره من شعراء الجاهلية الذين جابوا الجزيرة العربية وأطرافها متصلين بأولي النفوذ والجاه قاصدين الأمراء والقادة رفـداً وتقرّباً، والمطّلع على سيرة حسان يدرك أنّه قد اتصل بالغساسنة والمناذرة مادحاً

(١) اطّراد: «افتعال» من قولك «اطّرد» أي تتابع، والمذاهب: جلود كانت تذهب تجعلُ فيها خطوط مذهبة بعضها إثر بعض فكأنّها متتابعة.

لهم مفتخراً بهم وبأمجادهم التي يرى أنها ترتبط بأمجاد قومه، ولعلَ أبياته بالأمراء الغساسنةِ هي من أجمل ما ذكر له من شعر يقول حسان:[1]

لله درُّ عـصـابَـةٍ نـادمـتُـهُـمْ
يـومـاً بجلَّقَ في الـزّمـان الأوّل[2]
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
مشي الجمال إلى الجمال البـزّل[3]
الضـاربـون الكبش يبـرُق بيضُـه
ضرباً يـطيحُ لـه بنان المفصـلْ[4]
واالخـالـطون فقيـرهم بغنيـهمْ
والمنعمون على الضعيف المرمل[5]
أولاد جـفنـة حـول قـبـر أبيـهم
قبرِ ابن ماريـة الكريم المفضـل[6]

---

(١) ديوانه ص١٧٩ - ١٨٠= دار صادر.

(٢) العصابة: الجماعة، ونادمهم: أي اتصل بهم وسامرهم، وجلّق: دمشق، أو موضع فيها.

(٣) الحلل: الثياب، ولعلّه يقصد بها الدروع لأن المعنى يشير إلى ذلك، والبزّل: جمع بازل وهو البعير الذي استكمل الثامنة وطعن في التاسعة من العمر.

(٤) الكبش: سيّد القوم، البيضة: الخوذة يُتقى بها الرأس، يطيح: يقطع ويذهب.

(٥) المرمل: الذي نفد ماله.

(٦) مارية: ذات القرطين وهي أم بني جفنـة بن عمرو.

يغشــون حتى مـا تَهــرُّ كــلابهم
لا يسـألون عن السّـواد المقبـل[1]

يسقــون من ورد البــريص عليهم
بــردى يصفّق بالـرحيق السلسـل[2]

بيض الـوجـوه كـريمـةٌ أحســابهم
شمُّ الأنــوف من الـطّراز الأول[3]

ففي هذه الأبيات نلمح حنين حسّان إلى الغسـانة ومودّته لهم فهم أهـل السيف والجود، وأهـل الأحســاب والأنساب والأمجاد التليـدة في قربهم الأمان، وفـي البعد عنهم الشعور باليأس وفقدان الأمل، كما أنّ مدحه للمناذرة لا يقلّ عن مدحه لأندادهم الغساسنة فهم كذلك أهل الجود والكرم والشجاعة والبأس والنجدة، يقول حسّـان في أحد أمرائهم النعمان بن المنـذر، وهو يـردّ على شاعـر الأوس قيس بن الخطيم: مخاطباً ناقته[4]

أكلّفهــا أن تــدلــج الـليــل كلّه
تروح إلى باب ابن سلمى وتغتدي[5]

(١) يغشون: أي تؤمّ منازلهم لكرمهم، وتهرُّ كلابهم: تنبح، والسّواد: الجمع من الناس.
(٢) البريص: نهر بدمشق، وبردى، كذلك، والرحيق: الخمر.
(٣) شمّ الأنوف: أي هم أهل عزٍّ ورفعة.
(٤) ديوان حسان ص٧٣ .
(٥) تدلـج: تسير الليل، وابن سلمى هو النعمان بن المنذر.

وألفيتــه بحــراً كثيــراً فـضــولــه
جواداً متى يذكرْ له الخيـر يزدد[1]

وهكذا كان حسّان قبيل اسلامه شاعراً قبلياً يحاول أن يرعى مصالح قومه كما كان يفعل النابغة الذبياني تماماً، وذلك عن طريق الاتصال بالقوى المؤثرة في الحياة السياسية في ذلك العصر، وقد حمله على ذلك الخلاف بين قومه أي بين الخزرج والأوس، ولكن ذلك الخلاف ينتهي بعد أن يوحِّد الإسلام بينهما ويؤلِّف بين القلوب المتباعدة، وهنا يعود حسّان إلى ذاته، ويصبح شاعر الـدعوة الإسلامية المباركة التي نذر نفسه لها، ووقف شعره عليها.

وإذا عدنا لنبحث إسلام حسان فإننا نعود إلى الوراء قليلاً لنتعـرض إلى بداية الدعوة في قومه أو في يثرب على وجه العموم، فقد عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائـل بالمواسم في السنة العاشرة من بعثته، ولقي اناساً من يثرب وحدثهم وأسمعهم القرآن ودعاهم إلى الله، فلم يبعدوا عنه، ثمّ انصرفوا وقد استشعر بعضهم الإسلام، وفي السنة التالية لقي الرسول عند العقبة ستة نفر من الخزرج قوم حسان، فصدقوه وآمنوا به، ولمّا رجعوا إلى ديارهم ذكروا الرسول إلى أبناء قومهم وبلدهم، ولم يمضِ وقت حتى انتشـر الإسلام في ربوع يثرب.

---

(١) الفضول: العطايا.

ولمّا كانت العقبة الثانية في الثالثة عشرة من البعثة النبوية، لقي الرسول هناك ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان فبايعوه، أمّا المرأتان فخزرجيتان، وأمّا الرجال فكانوا من الأوس والخزرج، وبينهم كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وأوس أخو حسّان، وقد طال لبعض الوقت إقبال حسان على الرسول لأنه كما يقال: إنه كان مشغولاً بالإحن القائمة بين الأوس الخزرج، وكان مشغولاً أيضاً بحياة اللهو واللذات، وكان في غفوة جميلة يستعرض فيها ماضيه الحافل بالشام وفي قصور آل غسان، فترك قومه وشأنهم في اعتقاد الدين الذي يريدون، وترك لنفسه الاستمتاع بمباهج الحياة وملذاتها، ولكن الذي أوقظ نفسه إلى التفكير بالدين الجديد هو تلك الحميّة إلى قومه، فقد علمت قريش بخبر العقبة الثانية، وطاردت المؤتمرين فيها، وأسرت من أقرباء حسان سعد بن عبادة، وفاتها المنذر بن عمرو بن خنيس من أخوال حسان، فقال في ذلك ضرار بن الخطاب القرشي:

تداركتُ سعداً عنوةً فأخذته
وكان شفاءً لو تداركتُ منذرا
ولو نلتُهُ طلَّت هناك دماؤهُ
وكان حريّاً أن يهان ويهدرا[1]

(١) طلّت دماؤه: سفكت.

فما أحسّ حسّان بذلك القول حتى انتفض لقومه، ولحقته الغيرة على كرامتهم ومصالحهم، ووجد نفسه مضطراً للتفكير بالدين الجديد، وإلى أن يرتضي لنفسه ما ارتضى قومه لأنفسهم، فما أن كانت الهجرة بعد العقبة الثانية، وأخذت أضواء الفجر وطلائع الصباح الوضيء تغمر بطاح الحجاز وأوديته بالنور والهداية، وتعمّ أرجاء يثرب بدخول الرسول إليها حيث لقيه الأنصار بالتهليل والتكبير والاستباق على تكريمه والاحتفاء به حتى اهتز حسّان لما أصاب قومه من كرامة وعزة بدخول الرسول عليهم، فأقبل على الرسول وأسلم مع سائر الناس الذين تهافتوا على الرسول مبايعين، ومؤمنين بالدين الجديد، وقام بين يدي الرسول يعلن إيمانه بالله ورسوله، وبالرسالة التي جاء الرسول الكريم حاملاً لواءها وتعاليمها، فقال:(١)

شهدتُ بإذن الله أن محمّداً
رسولُ الذي فوق السمٰوات من علُ

وأنّ أبا يحيى ويحيى كليهما
له عملٌ في دينِه متقبّل(٢)

---

(١) الديوان ص١٨٦ .

(٢) يحيى عند النصارى: يوحنا المعمدان.

وأن التي بالجزع من بطن نخلةٍ
ومَنْ دانها فلٌّ من الخير معزل[1]
وأنّ الذي عادى اليهود ابن مريمٍ
رسول أتى من عند ذي العرش مرسل[2]
وأن أخا الأحقاف إذ يعذلونهُ
يقوم بدين الله فيهم، فيعدل[3]

فقال النبي ﷺ: أنا أشهد معك

وعرف الرسول نفسية حسان، وأدرك أنّه رجل يحب الشهرة والفخر فكرّمه الرسول وأحسن وفادته وقرّبه منه، فطابت نفس حسان وانطوت جوانحه على الرضا والغبطة بتلك المكانة الكريمة من الرسول العظيم فصدح بالشعر معلناً سرور الأنصار بمقدم الرسول وخيبة قريشٍ بارتحاله عنهم فقال:

لقد خاب قومٌ غاب عنهم نبيُّهم
وقد سُرَّ من يسري إليهم ويغتدي

ويذكر في مكان آخر ما لقي الرسول من قومه بمكة

---

(١) الجزع من الوادي: حيث تجزعه وتقطعه، ونخلة: موضع بين مكة والطائف، دانها: عبدها وأراد بذلك «العزّى» صنم لقريش وبني كنانة، وفلٌّ من الخير: أي لا خير فيه.
(٢) عادى اليهود: أي عاداه اليهود.
(٣) أخو الأحقاف: هو النبيُّ هود.

من سوء ومهانة، وما أصابه بالمدينة من حفاوة وتكريم وافتداءٍ بالأموال والأنفس فيقول:

وثوى بمكة بضع عَشْرَة حجّة
يذكّر لو يلقى خليلاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه
فلم يَرَ من يؤوي ولم ير داعياً

وأدركت قريش أنّ حسّان قد تحوّل إلى الإسلام، وصار لساناً للدعوة الإسلامية المباركة، ومحامياً مدافعاً عنها، فخشيت من ذلك لعلمها مكانة حسان وقيمة شعره وتأثيره على الناس، فانبرى له أمية بن خلف الجمحي يهجوه بقوله:

ألا من مبلغٌ حسان عنّي
مغلغلةً تدبّ إلى عُكاظِ[1]
أليس أبوك فينا كان قيناً
لدى القينات فسلاً في الحفاظ[2]

فيجيبه حسان مهدّداً متوعّداً:

أتاني عن أميّة زورُ قولٍ
وما هو بالمغيب بذي حفاظ

---

(١) المغلغلة: الرسالة، وعكاظ: سوق بالمدينة.
(٢) القين: الحداد، والفسل: الضعيف الرذل.

سـأنشـر إن لقيت لكم كـلامـاً
يُنشَـر في المجامـع من عكـاظ

ولكنّ الدعوة الإسلامية ازدادت اتساعاً وانتشاراً وأقبل الناس من كلّ حدبٍ وصوب إلى الرسول يبايعونه على اعتناق الدين الجديد والالتزام بالتعاليم المباركة، فغاظ ذلك الكفّار من قريش وحاولوا أن يشفوا غيظ صدورهم بالسبّ والشتيمة تعبيراً منهم بسلاحهم الذي لم يستطع أن يواجه سلاح الهداية والعقل والرشاد، وانبرى ثلاثـة من شعراء قريش يهجون الرسول ويتحاملون على الدعوة الجديدة، وهم عبـد الله بن الزبعـرى وأبـو سفيـان بن الحـارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، فما كان من الرسول إلاّ أن قال موجّهاً كلامه للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مِقْوَل بين بُصرى وصنعاء، ولو شئت لفريت به المزاد[1] فقال: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: إنّي أسُلُّكَ منهم كما تسلٍّ الشعرة من العجين، قال: فاذهب إلى أبي بكر ليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسـابهم، ثم اهجهم وجبريل

(١) فرى الشيء: قطعهُ، والمِزاد: جمع مزادة وهي وعاء من جلد يوضع فيه الماء.

معك، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم المثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم الكفر، فكان أشدّ القول عليهم في ذلك الزمان قول حسان وكعب، وأهونه عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلمت قريش كان أشده عليهم قول ابنَ رواحة، ولمّا أنشدت قريش شعر حسّان قالت: إنّ هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبي قحافة وقال من لم يعلم منهم أنه شعر حسان: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا[1] ولمْ يلبث حسّان أن اندفع في الدفاع عن الإسلام بكلّ ما أوتي من شاعرية فذّة ولسان وظّفه في خدمة الدعوة مؤيّداً ببركة الرسول ودعواته وانبرى يجاهد الكفّار والمنافقين فنال بذلك كلّ القبول والرضى من الرسول، حتى صار من المقربين وذوي الزّلفة لديه فأقامه وزير دعايته ومحامي دعوته وشاعر رسالته ينافح عنه وعن الإسلام الأعداء ويردّ على كل من تطاول على الإسلام والمسلمين بشعرٍ كان له وقع السهام ونفح النبال وظلّ على تلك الحال مجاهداً حتى دخلت الدعوة الإسلامية دوراً جديداً وبدأت الغزوات، ودارت رحى الحروب، وكانت موقعة بدرٍ الكبرى التي انتصر فيها

(١) راجع الأغاني الجزء الرابع ص٥٤ طبعة الساسي والإستيعاب ج١/ص١٢٨ .

المسلمون، فإذا بحسان ينتفض انتفاض الصقر، فيقف على جثث القتلى من المشركين مصوّراً معدّداً سادتهم مردّداً أقوال الرسول فيهم فيقول:[1]

ينـــاديـــهـــمْ رســـول الله لـــمّـــا
قـذفنـاهُـم كبـــاكب في القليب[2]
ألم تجـــدوا حـديثي كـــان حقـــاً
وأمـــرُ الله يـــأخـــذ بـــالـــقـــلوب
فمـا نطقـوا، ولو نـطقـوا لقـالـوا: .
صـــدقت وكنـت ذا رأيٍ مصـيب

ويمضي حسّان في أشعاره متعقّباً المشركين أحياءهم وأمواتهم، ذاكراً لكلّ قوم منهم مثالبهم، مفتخراً بانتصار الإسلام، متوسّماً في بعض أبياته هدى القرآن ومعاني آياته فيقول في معركة بدر مقتبساً الآيات القرآنية فيها:

ولّاهـــم بـغـــرورٍ ثـــم أسـلمــهـم
إنّ الـخـبـيـث لـمـن والاه غـــرّار
وقـــال إنّي لكـم جـــارٌ فـــأوردهم
شـــرّ المـوارد فيـه الخـزي والعـار

وذلك اقتباساً من قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وإذا

(١) ديوان حسان ص١٣ ـ ١٤ .
(٢) الكباكب: الجماعات، والقليب: البئر، وهو قليب بدر الذي قذفت فيه قتلى قريش.

زيّن لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنّي جارٌ لكم، فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ ومن قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فدلّاهما بغرورٍ فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

وظلَّ حسان في مجمل شعره مدافعاً عن الإسلام منافحاً عن الرسول واهباً نفسه لله قد أسلم متوسّماً إرضاءه في كلّ ما يذهب إليه فاسمعه يقول:

الله أكرمنا بنصر نَبيِّهِ
وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعزّ نبيّه وكتابه
وأعزّنا بالضرب والاقدام
في كلّ معتركٍ تطيرُ سيوفنا
فيه الجماجم عن فراخ الهام
ينتابنا جبريل في أبياتنا
بفرائض الإسلام والأحكام

فهو يعدُّ الكرامة كلّ الكرامة في نصر قومه للرسول وفي إقامة دعائم الإسلام وترسيخها بالسيف والكلمة وبنشر المبادىء الإسلامية والأحكام الإلهية بين الناس، وهذا شرفٌ لا يعادله شرف مهما علا لأنه شرف يستمد بريقه ورفعته من

الإيمان بالله والانتصار لمبادئه والذّود عن شرائعه ورسله.

وفاته:

عاصر حسان الخلفاء الراشدين وأدرك حكم معاوية، فكان بذلك واحداً من المعمّرين الذين عمّروا طويلاً وبلغوا من العمر أرذله، وتكاد الأقوال تجمع على أنّ حسّان قد عاش نحواً من عشرين ومائة سنة، وأنه توفّي أيّام معاوية حوالي سنة ٥٤هـ ٦٧٤م ويرى نولدكه أن حسّان عاش دون المائة، وأنه ولد حوالي سنة ٥٩٠م، وتوفى حوالي ٦٦٠م قبيل خلافة معاوية، ويستند في ذلك على قصائده التي قالها سنة ٦٥٦م وسنة ٦٥٧م اثر مقتل عثمان، ورأى أنها قصائد تشتعل حماسة ولا تصدر عن شيخ بلغ من العمر عتيّا، ونولدكه في رأيه هذا لا يتفق مع أقوال المؤرخين بل هو يعتمد على الافتراض والاستناد إلى الشعر الذي لا يمكن أن يحدّد في بعض نواحيه وخاصة النواحي المرتبطة بالوجدان مدى ما بلغه الإنسان من العمر، فالسنّ المتقدّمة لا يمكن لها أن تطفىء جذوة النفس وحرارة القلب وعزيمة التمسّك بالحياة، وبذلك يبقى رأي نولدكه فرضياً تعوزه الدقة لأنه يذهب إلى مخالفة ما أجمع عليه المؤرخون.

أخلاقه وصفاته:

الذي يطالع شعر حسّان يمكن أن يقف على بعضٍ من أخلاقه وصفاته، كما يمكن له أن يحدّد بعض جوانب

شخصيته، لأن الشعر يصوّر نفسية الإنسان ويرسم ملامحها ويعبّر عن تطلعاتها وقد بدا حسان في أشعاره من المتعصبين لقومه اليمنيين مفتخراً بهم في كلّ مكان، فقد قهر الإسلام في نفس حسّان كل شهوة إلاّ شهوة قوية ظلّت تطلّ برأسها على كل مناسبة وهي شهوة الفخر بقومه وآبائه وأجداده والتعصب لهم وهذا الزهو بقومه جعله يزهو بنفسه ويفتخر بها ويطمح إلى أن يكون في المقدّمة حتى ولو كان في ذلك الهلاك، فقد روي أنه تمنّى أن تكون له زعامة الشعر ولو انتهى به ذلك إلى النار، فقد عقّب على قول الرسول ﷺ في امرىء القيس: يجيء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار، فقال حسّان: ليت هذه المقالة فيّ وأنا المدهدى فيها،[1] وكان فيه عنجهية وصلف جاهلي لازماه بعد إسلامه كما أنه كان أبيّ النفس، ولم يعرف عنه أنه تكسّب بشعره، لأنه كان سيّداً شريفاً في منعةٍ من قومه وفي تعالٍ من ذاته، ويبدو أنه كان سليم الطوية، وربّما ينقاد إلى تصديق الادعاءات وثوقاً منه بآراء الغير وهذا ما جعله يذكر حادثة الافك في شعره، كما كان من الذين يتطيّرون ببعض الأشياء، فمثل هذه الأشياء ساعدت البعض على اتهامه بأنه لم يتأثّر بالإسلام إلاّ قليلاً، وأنّ قلبه لم يتشرّب مبادئه، أمّا الحديث عن جبنه فترويه أكثر المصادر التاريخية مستندة إلى

(١) ابن عبد ربّه: العقد الفريد ج٣/٩٣ مطبعة الإستقامة القاهرة.

حادثة الحصن وطواف أحد اليهود به وكان فيه حسان مقيماً فقالت له صفية بنت عبد المطّلب انزل إلى ذلك اليهودي واقتله فقال حسان لها:

يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلما قال لي هذا ولم أر عنده شيئاً احتجزت[1] ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلمّا فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت يا حسان: انزل إليه فاسلبه، فإنه لا يمنعني من سلبه إلاّ أنه رجل، قال: مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب.

والأخبار تجمع وتتواتر على وصفه بالجبن وتخلّفه عن الجهاد بالسيف ومع ذلك يكفيه فخراً أنّه كان من المجاهدين بألسنتهم، وهو جهادٌ لا يقلّ مكانة عن الجهاد بالنفس، بل هو مستلٌ منها ومن عزيمتها التي تختلف بين الناس حسب اختلاف طبائعهم ومشاربهم أمّاثقته بشعره وثقته بنفسه في غير مواضع القتال، فقد كانت كبيرة وقوية، وهو يتميّز بالرأي الصريح والمجاهرة بالحق مهما كلّفه من عناء ومشقة، وكان من الذين يحافظون على المودّات، ومن الذين يصبّون جام

(١) احتجز: شدّ وسطه.

(٢) راجع ابن عساكر تاريخ دمشق ج٤ ص١٣٩/١٤٠ وسيرة ابن هشام ٢٣٩/٣

غضبهم على الأعداء، وقد أفاده ترحاله إلى الملوك آداباً كثيرة كما أنّ الإسلام قد هذّب بتعاليمه ما استفاده من رحلاته تلك فكان يكره النّمام والمنافق ولا يداهن ولا يتملّق، كما كان جامح الغضب شديد الانفعال هذه بعض أخلاق حسان وصفاته وهي لا شك أخلاق وصفات بشريـة فيها مـا يعجب وما لا يعجب، وليس هناك من إنسانٍ اكتملت فيـه الصفات، لأن الكمال يظلّ ينقص الإنسان مهما حرص على بلوغه . .

أغراضه الشعرية

الفخر

حسـان كغيـره من الشعـراء الجـاهليين، لم يتـرك في أشعاره غرضاً من أغراض الشعر إلاّ وتعرّض له، وهو لم يقصد، كغرض مستقل أو كفنٍّ قائمٍ بذاته، وإنما كان ذلك عبر قصائـده التي كانت فـي مجملهـا خاضعـة لدواعي المناسبات والحاجات الذاتية، فهو لم يخالف في أشعاره تقاليد القصيدة العربية بل كان واحداً من الذين نهجوا نهجها ودعّموا أصولها وأرسوا قواعدها، والفخر عند حسان جاء في ثنايا قصائده وعبر مواقف متعدّدة فرضت عليه مثل ذلك الفخر ردّاً على الأعداء ومعارضةً لما يصدر عن شعرائهم من انتقاصٍ لقومه أو لما يؤمن به من حق وصواب.

ويبدو أن شعور حسان بمجد آبائه ومفاخر قومه قد قاده إلى أن يعلي من شأنهم تعصباً لهم على سبيل الردّ على الخصوم، فالمعارك أو العداوة التي كانت سائدة بين قومه الخزرج وبين الأوس فرضت عليه مثل ذلك الشعر الذي ينوّه

بأيّام الاجداد والأسلاف إذكاءً لحماس النفوس وإثارةً لمشاعر الولاء للقبيلة حتى يتكاتف جميع أبنائها في وحدة متينة تصبح معها قادرة على الوقوف في وجه الأعداء وتحقيق الانتصارات ويمضي حسّان في تأصيل مفاخر قومه والتذكير بماضيهم التليد في كلّ شعر ينظمه سواء أكان وصفاً أم غزلاً أم مدحاً أم رثاءً أم إلى غير ذلك من بقية الأغراض الشعرية، فغريزة الفخر كانت قاهرة في نفس حسان غذّاها ونمّاها وزادها ذلك النسب العريق والجاه العريض، وللاطلاع على فخر حسّان لا بدّ أن نعود إلى شعره لنقف على مناحي فخره وهو على كلّ حال فخرٌ جاهلي لا يتعدّى مجال النفس أو القبيلة، يقول حسّان في إحدى قصائده:[1] .

إنّ النضيرة ربّة الخدر
أسرتْ إليك ولم تكن تُسري[2]
فوقفت بالبيداء أسألها
أنّى اهتديت لمنزل السّفر[3]
والعيس قد رُفضت أرمتها
ممّا يرون بها من الفتر[4]

---

(١) ديوان حسان ص٩٦ .
(٢) النضيرة: اسمُ لامرأة، أسرت: من سرى بمعنى سار ليلاً.
(٣) السّفر: المسافرون.
(٤) رفضت: ألقيت، والأزمّة: جمع زمام وهو ما تقاد به، والفتر: الأعياء.

كـنّـا إذا ركـد الـنـهـار لـنـا
نـغـتـالـه بـنـجـائـبٍ خـمـر[1]
عـوج نـواج يـعـتـلـيـن بـنـا
يـعفـيـن دون الـنصّ والـزّجـر[2]
مـسـتـقـبـلاتٍ كـلّ هـاجـرةٍ
ينفحن فـي حَلَقٍ مـن الصُفـر[3]
ولـقـد أريـت الـركـب أهـلُهُـمُ
وهـديـتهـم بـمـهـامـةٍ غُـبـر[4]
وبـذلـت ذا رحـلـي وكنت به
سمحـاً لهم في العسـر واليسـر[5]
فـإذا الحـوادث مـا تضعضعني
ولا يضيق بحـاجـتي صـدري[6]
يعيي سـقـاطي مـن يـوازنـني
إنـي لعـمـرك لسـت بـالهـذر[7]

(١) ركد النهار: طال، نغتاله: نقطعه، والنجائب: كرام النوق، والصعر: الموائل الرؤوس من جذب الأزمّة.
(٢) العوج: اللينة الأعطاف، والنواج: المسرعة، والنصّ: الحثّ.
(٣) الهاجرة: شدّة الحر، وينفحن: يرمحن ويرفسن بأرجلهن، والصفر النحاس.
(٤) المهامة: الفيافي والأراضي المقفرة.
(٥) السمح: الكريم والسهل الأخلاق.
(٦) تضعضعني: تفت من عزيمتي.
(٧) سقاطي: ما سقط مني من الشعر، والهذر، الكثير الكلام.

إنّــي أكــارم مــن يــكــارمــنــي
وعلى المكـاشح ينتحي ظفـري[1]
لا أســرق الشعـراء مــا نــطقــوا
بــل لا يـوافق شعــرهم شعــري
إنّــي أبـى لــي ذلـكــم حــسـبـي
ومـقــالــةٌ كـمـقــالــع الـصـخــر
وأخـي من الـجـنّ الـبـصـيــرُ إذا
حــاك الكـلام بــأحسن الحبــر[2]
قــومـي بنـي الـنـجــار رفــدهــم
حسنٌ وهـم لي حـاضـروا النّصــر
الـمــوت دوني لـست مـهـتـضـمـاً
وذوو الـمـكــارم مـن بنـي عـمــرو
جـرثــومــةٌ عـــزٍّ مـعــاقــلـهــا
كـانت لنا في سـالف الـدهـر[3]

فحسان في هذه القصيدة التي يحاول بها أن يفتخر بنفسه وبقومه نراه يجري على عادة أقـرانه من الشعـراء الجاهليين فيبتدىء متغزلاً ذاكراً ديار الحبيبة وشوقه إليها

(١) المكاشح: المعادي.
(٢) أخي من الجن: أي شيطانه، وكان العرب يعتقدون بوجود شياطين تملي على الشعراء أشعارهم.
(٣) الجرثومة: الأصل، والمعاقل: الحصون.

وهـذا ما يحمله إلى ذكـر السفر والـرحيل فيـذكر عنـدئذٍ النـاقـة التي تقطع به المهامه وتوصله إلى حيث أراد واصفاً معاناته وما كابده في سفره من عناء ومشقة متنقلاً بعد ذلك إلى الحديث عن نفسه وشعره وقومه، فيروي لنا ركوبه الأهوال ومواجهته الأخطار، ويفتخر بهدايته للركب وبذله لرفاقه كلَّ عون ومساعدة في العسرٍ واليسر، وهو في كلّ ذلك قويٌّ منيع لا تضعفه النوائب ولا تفتُّ من عزمه الصعاب ولا توهن إرادته المشقات ويستطرد في فخره فيرى نفسه غالباً لمن يوازنه أو يقاربه في المكارم والاحساب والنظم، وينتهي بعد ذلك إلى الفخر بقومه فيذكر حسن رفدهم وسرعة نصرهم وامتناعه بهم فهم جرثومة عزٍّ حصونها منيعة ومعاقلها رفيعة وهكذا نرى فخر حسّان لا يختلف عن فخر غيره من الشعراء ولا يتعدّى حدود القبيلة والذات، ويقول في قصيدةٍ أخرى مفتخراً بقومه: (١)

أولئـك قـومي فـإن تسـألي
كـرامٌ إذا الضيف يومـاً ألمْ(٢)

عـظام القـدور لأيسـارهـم
يكبّـون فيهـا المسنّ السّنم(٣)

---

(١) ديوانه ص٢٢١ ـ ٢٢٣ .
(٢) ألم: نزل.
(٣) الأيسار: الجزور.

يـواسـون مـولاهـمُ في الـغنـى
ويـحـمـون جـارهـم إن ظُـلم[1]
وكـانـوا مـلوكـاً بـأرضيـهـم
يبـادون غضبـاً بـأمـرٍ غشم[2]
ملوكـاً على النـاس لم يملكـوا
من الـدّهر يـومـاً كحـلّ القسم[3]
فـأنـبـوا بعـادٍ وأشـيـاعـهـا
ثـمـود وبـعض بـقـايـا إرم[4]
بيثـرب قـد شيّـدوا في النّخيـل
حصـونـاً ودُجِّنَ فـيهـا الـنعـم[5]
جيـاد الـخيـول بـأجنـابـهـم
وقـد جـلّلوهـا ثـخـان الأدم[6]
عـليـهـا فـوارس قـد عـاودوا
قـراع الكمـاة وضـرب البُهَمْ[7]

---

(١) المولى: العبد.
(٢) المباداة: المكاشفة، والغشم: السّيء الظلم.
(٣) كحلّ القسم: هو مثل قولك «إن شاء الله».
(٤) أنبوا: سهّل أنبأوا.
(٥) دجّن: جعله داجناً أي روّضوا الأنعام.
(٦) قوله بأجنابهم: أي مقودة بأجنابهم.
(٧) عاودوا: أي تعوّدوا، والبهم: جمع بهمة وهو الفارس الذي الأيدرى من أين يؤخذ.

ليــوتٌ إذا غضبــوا في الحــروب
لا يــنـكـلــون ولــكــن قُــدُم[1]

فهو هنا يذكر قومه ومآثرهم وعاداتهم، ويرى أن الكرم شيمةٌ من شيمهم، أبوابهـم مشرعة للضيوف، وقدورهم كبيرة لأنها أعدّت لاستقبال الكثير من الناس، وهم يشاطرون عبيدهم في أموالهم، ويحمون جيرانهم من كـلّ ظلم، فالنازل في ديارهم مكرم والملتجىء إليهم منيع والمجاور لهم في أمنٍ وحمى لأنّهم ملوك سـادة، وفرسـان قادة، والحروبَ لهم عادة، تراهم يقدمون على الموت إيماناً منهم بالعزّ والنصر، ويقول في موضع آخر:[2]

فـإن كنتِ لمّـا تخبــرين فسـائلي
ذوي العلم عنّـا كي تنبّي فتعلمي
متى تســألي عـنّــا تنـبّي بــأنـنــا
كــرامٌ وأنــا أهــل عــزٍّ مــقــدّم
وأنــا عــرانينٌ صقــورٌ مصــالــتٌ
نهــزُّ قنــاةً متنهــا لم يــوصــم[3]
لعمــرك مــا المعتــرُّ يـأتي بــلادنـا
لنمنعــهُ بــالضــائــع المتهضّم[4]

(١) ينكلون: ينكصون ويفرُّون.
(٢) ديوانه ص٢٣٧ .
(٣) العرانين: السادة، والمصالت: الماضـون في الأمور، ويوصم: يعاب.
(٤) المعترّ: طالب المعروف، والمتهضم: المظلوم.

ولا ضيفنا عند القرى بمدفَّعٍ
ولا جارنا بالنائبات بمُسلمِ[1]
وما السيِّد الجبار حين يريدنا
يكيد على أرماحنا بمحرَّم
نبيح حمى ذي العزّ حين نكيدُهُ
ونحمي حمانا بالوشيج المقوّم[2]

ففي هذه الأبيات التي يمكن أن نعدّها من روائع فخره، نرى كيف تتحوّل الكلمات فيها إلى صوارم قاطعة تتشابك مع ذلك الإحساس بالتيه والعز، وتتواءم مع الروح المتوثبة التي تفيض فخراً وعلاءً فهو يتوجّه إلى من تسأل عنه وعن قومه طالباً منها أن تستخبر لتقف على الحقيقة التي لا ينكرها أي إنسان، ولا يجهلها أحدٌ لأنها معلومة يعرفها القاصي والداني ويتحدّث عنها كلّ من أوتي من العلم نصيباً، ومن الشهامة قدراً، ولسوْف يتبيّن لها بعد التقصّي أنه من قومٍ الكرم عادتهم والشجاعة فيهم يبطشون بالجبار الذي يكيدهم، حماهم في عزّ، ومنعة لأنهم يدفعون بسيوفهم ورماحهم كل من يحاول أن يستبيح ديارهم أو ينتقص أقدارهم.

(١) مدفّع: الممنوع عن الطعام.
(٢) الوشيج: الرماح، والمقوّم: المثقّف.

وهكذا نجد حسان في فخره يركّز على قيمٍ جاهلية رأى فيها القوم آنذاك كلّ الصفات المجيدة التي تحوّلت إلى تقاليد موروثة تجمع شتات الفضائل والمحامد والمكرمات، ولم يتغيّر فخر حسان بعد إسلامه كثيراً عن ذلك الفخر في الجاهلية لأنّه ظلّ في حدود القيم المتعارف عليها وإن ناله بعض التجديد فإنه تجديد لا يعدو كونه افتخارٌ بنصرة الدين الجديد والدفاع عنه يقول حسان:[1]

هل المجد إلاّ السّودد العود والندى
وجاهُ الملوك واحتمال العظائم[2]
نصرنا وآوينا النبي محمّداً
على أنف راضٍ من معدٍّ وراغم
بحيّ حريدٍ أصلُهُ وذماره
بجابية الجولان وسط الأعاجم[3]
نصرناه لمّا حلّ وسط رحالنا
بأسيافنا من كلّ باغٍ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا
وطبنا له نفساً بفيء المغانم[4]

---

(١) ديوانه ص٢٢٩ .
(٢) العود: القديم.
(٣) الحريد: المنفرد من القبيلة، وأراد بالأعاجم: آل غسان.
(٤) الفيء: ما فاء للمسلمين من الغنائم من غير حرب.

ونحن ضربنا النـاس حتى تتابعـوا
على دينه بالمـرهفات الصـوارم[1]
ونحن ولـدنا من قـريشٍ عظيمهـا
ولـدنـا نبيّ الخيـر من آل هـاشم
لنا الملك في الإشراك والسبق في الهدى
ونصـر النـبيّ وابـتنـاء الـمكـارم

فحسان في هذه الأبيات يرى المجد عادة في قومه، إنهم يتوارثونه بل يأبى المجد إلّا أن يكون فيهم ومعهم، ففي الجاهلية كانوا الملوك والسادة، ولمّا جاء الإسلام كانوا السّباقين إلى اعتناقه والذود عنه، وكان لهم شرف الإيمان وشرف نصرة النبي الذي تربطه بقومه أواصرهم، وأواصر إيمان بالدعوة التي بذلوا في سبيلها كلّ غالٍ ونفيس.

وهكذا يبدو للذي يتتبّع فخر حسان في كلّ أشعاره، أنه ظلَّ فخراً جاهلياً لم يتأثر بتعاليم الإسلام كثيراً، وربّما اضطره الردّ على خصوم الإسلام أن يحافظ على مثل ذلك القول الذي يتغنّى بالاحساب والانساب والأيام والمواقع، ويذكر فيه المواقف التي انتصر بها قومه في سالف الزمن، والمواقف الجديدة التي انتصروا فيها للإسلام وذادوا عنه بكل ما ملكوا من عزٍّ ومجد وغنًى ومكارم.

---

(١) المرهفات: السيوف.

المدح

والمدح عند حسان ليس بعيداً عن الفخر، لأنه يتناول القيم نفسها التي يركّز عليها، فإذا كان الفخر هو تمجيد المزايا والصفات فإن المدح كذلك تمجيدٌ لهما وتبيان لما يمتلكه الممدوح منهما، وحسّان ليس شاعر مديح لأن نفسيته المتعالية وسيادته في قومه وشعوره بالعزة والمنعة والشرف، جعله يميل عن المديح إلى الفخر، والمتتبّع لأشعاره سوف يلاحظ أن المديح فيها لا يمثل إلّا حيزاً ضئيلاً منها، وهو يأتي نتفاً متباعدة في معرض إشادته ببعض الأقوام الذين تربطه بهم علاقات مودّةٍ وجوار، أو مصالح مشتركة، والمديح في معناه العام أن توجِّه إلى الممدوح من صفات الخير ما يكون له وفيه وما يليق به، وقد جاء في بعض المصادر أن حسان «كان يمدح الملوك والمناذرة والغساسنة في الجاهلية، ويرحل إليهم فينال منهم جزيل العطايا، وأكثر من كان يمدحهم ويكثر انتجاعهم آل جفنة من ملوك غسان»[١].

---

(١) الوسيط: ص١٥٩ .

ويرى بعض الباحثين أنّ حسان بن ثابت لم يكن شاعر مدح، والمدح أقلّ الفنون حظّاً في شعره، وقد جاء ذكر الممدوحين في أشعاره عابراً، ولكنه اختص آل جفنة من ملوك غسان بقصيدة مشهورة، وتكاد تكون تلك القصيدة أطول مدائحه إذ لا يعلم له في هذا الباب غير أبيات متفرّقة جاءت كما ذكرنا في ثنايا الفخر بنفسه وبقومه، ومن ذلك قوله في مدح ابن سلمى النعمان بن المنذر:

أكلّفها أن تدلج الليل كلّهُ
تروح إلى باب ابن سلمى وتغتدّي
وألفيته بحراً كثيراً فضوله
جواداً متى يذكر له الخير يزدد

فهو في مديحه ذاك لم يزد على ذكر بيت واحد، لأن البيت الأول يتوجّه فيه إلى ناقته التي حملته إلى النعمان، ويمدح في قصيدة أخرى خاله ببيت شعري واحد يأتي كذلك في معرض الفخر بنفسه، وارتضائه إيّاه حكماً بينه وبين خصم له فيقول عنه:

له كفٌّ تفيض دماً وكفٌّ
يباري جودها سحّ الشّمال

وله كذلك أبيات في مدح بني عبد الدار من قريش وهي:(١)

(١) ديوانه ص١١٤.

كـانت قـريش بيضـةً فتفلّقت
فـالمخُّ خـالصـه لعبـد الـدّار
ومنـاةُ ربّي خصهم بكـرامـةٍ
حـجّـاب بيت الله ذي الأستـار
أهـل المكـارم والعـلاء ونـدوة
النـادي وأهـل لطيمـة الجبّـار[1]
وَلِـوا قـريشٍ في المشـاهـد كلّهـا
وبنجـدةٍ عنـد القنـا الخـطّار[2]

وفي معـرض رثـائـه للحـارث الجفني أحـد ملوك الغساسنة الذي يقال إنه قتل في حرب له مع المناذرة تراه يشيد بالغساسنة ويذمّ القبائل التي تخلّفت عن نصرته فيقول في مدحهم:[3]

من جذم غسّان مسترخٍ حمائلُهُمْ
لا يغبقون من المعزى إذا آبـوا[4]
ولا يـذادون محمّـراً عيـونهم
إذا تحضـر عند المـاجد البـاب[5]

---

(١) اللطيمة: العير تحمل الطيب.
(٢) القنا: الرمح.
(٣) ديوانه ص١٩ .
(٤) الجذم: الأصل، ويغبقـون: يشربون.
(٥) يذادون: يدفعـون. تحضر: أي إزدحم الناس.

كانوا إذا حضروا شيب العقار لهم
وطيف فيهم بأكواس وأكوابِ[1]

والمطلع على شعر حسان في معرض هذا الباب يرى أن حسّان لم يكن ليتكسب بشعره لأنه يمنعه من ذلك اعتدادٌ بالنفس وفخر بالقوم والعشيرة، فهو لا يرى في الممدوحين أشياء يعزّ وجودها في نفسه وفي قومه، ولذلك فهو يتعامل مع السادة تعامل الندّ للند والقرين للقرين، ومن أجل ذلك قلّ المدح في قصائده وكثر الفخر حتى نكاد نجده في كل قصيدة، ولعلّ قصيدته في الغساسنة هي القصيدة اليتيمة التي تناول فيها أبناء جفنة مادحاً وتقول الروايات ان مدحه لهم كان بحضور النابغة وعلقمة وقد مرّ ذكر هذه القصيدة في معرض حياته حيث تحدّثنا عن اتصاله بالغساسنة، ولا بأس من ذكر بعض أبياتها، يقول حسان:

لله درُّ عصابة نادمتهم
يوماً بجلِّقَ في الزّمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
مشي الجمال إلى الجمال البزّل
الضاربون الكبش يبرق بيضه
ضرباً يطيح له بنان المفصل

---

(١) شيب: خرج، وفي البيت: قواء وهو اختلاف حركة الروي.

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
لا يسألون عن السّواد المقبل
يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شمُّ الأنوف من الطراز الأول

فقد أجاد حسان في هذه القصيدة، إذ مدحهم بخير ما تمدح به الملوك وما تتميّز به عن غيرها من الناس وقد أشار ابن سلّام الجمحي إلى مديحه فقال: إنّه من شعر حسان الجيد، وقالوا إن الحطيئة لما حضرته الوفاة قال: أبلغوا الأنصار أن أخاهم أشعر الناس حيث يقول:

يغشون حتى ما تهرُّ لكلابهمْ
لا يسألون عن السّواد المقبل

وقال عبد الملك بن مروان: إن أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا،[1] وهكذا يبدو لنا أنّ حسّان لم يكن

(١) راجع طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي، والعمدة لابن رشيف القيرواني.

شاعر مدح للأسباب التي ذكرناها من قبل، ولكنه إذا مدح فهو ليس بخارج عن السّنن التقليدي لأنه شاعر سار على خطى أسلافه واستعار منهم قيمهم وأوصافهم فكان مدحه يتوسّل كلّ ما ارتضى أن يكون مبعثاً للمكارم ومعلياً للمزايا والمناقب.

الهجاء

الهجاء فنّ من أهم الفنون الشعرية التي أكثر منها الشعراء الجاهليون وهو يكاد والفخر يمثل نسبةً عاليةً من ذلك الشعر نظراً للظروف التي كان العرب يعيشونها في جاهليتهم وهي ظروفٌ قاسية حوّلت حياتهم إلى حياةٍ غير مستقرّة تشوبها النزاعات الدائمة والمعارك المتلاحقة التي طالت إلى سنوات متعدّدة كما هو الحال في حرب البسوس وحرب داحس والغبراء، وقد قادتهم تلك الظروف إلى نوع آخر من الحرب هي الحرب الكلامية التي كان الشعر وسيلة هامة من وسائلها، بل نكاد نقول: الوسيلة الوحيدة التي لا وسيلة لهم غيرها، ولذلك فقد انبرى الشعراء من القبائل المتقاتلة كلٌ يحاول أن يؤيّد قبيله بما أوتي من ملكةٍ شعرية مستخدماً لسانه بدل السيف والسنان، ذاكراً أمجاد قومه وأيامهم مفتخراً بأنسابهم وأحسابهم، معيّراً أعداءهم بمثالبهم وهاجياً أحسابهم وأنسابهم وأفعالهم، مستعملاً كلّ الوسائل من أجل الإيذاء والتحقير، ولذلك نرى شعر الهجاء يشيع بين القبائل، ويسري فيها سريان النار في الهشيم حيث سرعان

ما تتلقّفه الألسن وتردّده على المسامع رجاء أن يؤدّي دوره الهام في تحقير الأعداء والنيل من الخصوم.

إذاً لقد كانت أيام العرب داعية إلى قيام نهضة أدبية تؤرث نارها، وتسجل آثارها وكان الفخر والهجاء دعامتي تلك النهضة وأبرز فنون الشعر فيها، وكانت أيّام الأوس والخزرج من أشهر أيّام الجاهلية، وقد اقترنت بذكر جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين، ولم يكن لحسان من بدّ - وهو الشاعر الخزرجي الذي رعى مصالح قومه وعاش عمره في سبيلها - من أن يساهم في المعارك الحربية بلسانه حيث كان يباهي بأيام قومه ويذكر أمجادهم ويردّ على المتعرضّين لهم بما كان يُسمى شعر المناقضات، وذلك الشعر الذي تطوّر فيما بعد وازدهر في العصر الأموي على لسان المثلث الأموي - جرير والأخطل والفرزدق - وكان مع حسان في مناقضاته عبد الله بن رواحة، وكان في طليعة المنافحين عن الأوس قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت، وتدور المعارك الشعرية بين حسّان وقيس أي بين الخزرج والأوس فنرى قيس بن الخطيم يحاول في قصيدته التي يقول فيها:[1]

ردّ الخليط الجمال فانصرفوا
ماذا عليهم لو أنّهم وقفوا

(١) ديوانه ص١١٣ - ١١٦ - دار صادر.

أبـلغ بنـي جحـجـبـى وقــومـهـم
خــطمــة أنّــا وراءهـــم أنــف[2]

وأننــا دون مـا يســومهم الأعـداء
مـــن ضيـــم خـــطةٍ نــكــف[3]

نـفلي بـحــدّ الصـفيـح هــامـهم
وفـلينــا هــامـهُـم بـنــا عـنـف[3]

أن ينال من قوم حسّان، وأن يلحق بهم ما يؤذيهم ويذكر مثالبهم، ويردّ حسّان عليه في قصيدة يعارض ما جاء في قصيدته فيقول:[4]

مــا بــالُ عيني دمــوعُهــا تـكف
من ذكر خودٍ شطّت بهــا قــذف[5]

بــانـت بـهــا غــربــةٌ تــؤم بـهــا
أرضـاً ســوانـا فالشكل مختلف[6]

مــا كنت أدري بــوشــكٍ بينـهُم
حتى رأيت الحـدوج قد عزفوا[7]

---

(١) بنو جحجبى وخطمة: من الأوس، وأنف: أهل إباء.
(٢) نكف: جمع ناكف أي ممتنع.
(٣) نفلي: نعلو، والصفيح: السيوف.
(٤) ديوانه ص١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٥) تكف: تنهمر، والخود: الفتاة الحسنة الخلقة.
(٦) بانت: بعدت، والغربة: النؤي والبعد.
(٧) الحدوج: مراكب النساء، وعزفوا: انصرفوا.

فغادروني والنفس غالبها
وما شفّها والهموم تعتكف[1]

إلى أن يقول:

دع ذا وعدّ القريض في نفرٍ
يدعون مجدي ومدحتي شرف
إن أدعُ في المجد القهْم سلفاً
أهل فعالٍ يبدو إذا وُصفوا
بلِّغ عني النبيت قافيةً
تذلُّهم إنهم لنا حلفوا[2]
بالله جهداً لنقتلنّكمُ
قتلاً عنيفاً والخيل تنكشف[3]
أو ندعُ في الأوس دعوةً هرباً
وقد بدا في الكتيبة النصف[4]
كنتم عبيداً لنا نخوِّلكم
من جاءنا والعبيد تضطعف[5]
شأنكُمُ جدُّكم وأكرمنا
جدٌّ لنا في الفعال ينتصف

(١) شفّها: براها وأسقمها، وتعتكف: تدوم.
(٢) النبيت: حيٌ من الأوس.
(٣) تنكشف: تنهزم.
(٤) النّصف: المرأة الوسط في سنّها.
(٥) نخوّلكم: نجعلكم عبيداً.

تجعــلُ من كـان المجـد محتـدهُ
كـأعـبُـد الأوس كلّمـا وصـفـوا
هــلّا غـضـبـتـم لأعــبـد قـتـلوا
يــوم بـعــاثٍ أظـلّهــم ظـلف[1]
نـقـتـلهـم والـسـيــوف تــأخــذهـم
أخــذاً عـنـيـفــاً وأنـتـمُ كشـف[2]

وهكذا نجد حسّان في هذه الأبيات يردّ على قيس مناقضاً ما جاء في قصيدته مبتدئاً على عادة الشعراء بالغزل، منتقلاً بعد ذلك إلى غرضه بقوله «دع ذا» ذاكراً أمجاد قومه الذين لهم في المعارك والانتصارات قدمٌ سابقة، والذين يعرفون إذا وصفوا بما لهم من مآثر وأيام لا تنسى، ثم يذكر بعد ذلك النّبيتين من الأوس بما يذلّهم ويشينهم ويتوعّدهم بالقتل والهزيمة، وينعتهم بـالجبن والفرار من المـواجهة ويذكّرهم بيوم بعاث الذي سامهم فيه الخزرجيون الذلّ والمهانة وقتلوا فيه سادتهم وأخذوهم أخذاً عنيفاً فيه كثير من القسوة ومن البلاء والشجاعة.

إذاً لقد كان حسّان لسان قومه والمنافح عنهم بكلٍّ ما أوتي من شاعرية قادرة على إسكات الخصم والنيل منه، هذا

(١) ظلف: شدّة وحاجة.
(٢) كشف: منهزمون.

ولم يعدم حسان وسيلة إلّا واستعملها في الدّفاع عن قومه وقبيلـه، وكان في كلّ أشعاره التي يناقض بها الأعداء مازجاً الفخر بالهجاء، متوسّلاً فيهما الوصول إلى غاياته إذ لا يمكن أن يردّ على الأعداء بما يشينهم إلّا ويذكر ما لقومه من مفاخر تزيد في إغـاظتهم، يقول في إحدى قصائده التي يردّ بها على أبي قيس بن الأسلت:(١)

ألا أبـلغ أبـا قـيس رسـولاً
إذا ألـقى لـهـا سـمـعـاً تُـبـينِ(٢)
قـتـلتُـم واحـداً مـنّـا بـألـفٍ
هـلا لله ذا الـظّفـر الـمـبـين
وذلـك أنّ ألـفـكُـمُ قـلـيـلٌ
لـواحـدنـا، أجـل أيضـاً ومينٌ(٣)
فـلا زلتم كـمـا كنتمْ قـديـمـاً
ولا زلـنـا كـمـا كـنّـا نـكـون
يـطيـفُ بكـم من الـنّجـار قـومُ
كـأسـد الغـاب مسكنُهـا العـرين
كـأنّـا إذ نـسـاميـكـم رجـالاً
جمـالاً حيـن يجـتلدون جـون(٤)

(١) ديوانه ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٢) الرسول: أي الرسالة، وتبين: تظهر وتبين له ما فيها.
(٣) مين: أصلها مئين، خفّفت الهمزة لضرورة الشعر.
(٤) يجتلدون: يقتتلون، والجون: من الأضداد ويطلق على الأبيض الأسود.

فحسان يرى في هذه الأبيات أن أولئك الأعداء ليسوا من الأكفاء أو من الذين يمكن لهم أن يفاخروا قومه بحسبٍ أو نسبٍ أو شجاعة، وهو يحاول أن يقلّل من شأنهم إيذاءً لهم وتحقيراً لكرامتهم فالواحد من قومه يعدل ألفاً منهم، والألف منهم إذا ما قتلوا قليل بالنسبة لقتل واحدٍ منهم، هكذا هم بنو النجار، قليلهم كثير، لأنهم كأسد الغاب لا يمكن أن ينال منهم عدو ولا يمكن أن يساميهم في الفخر أيّ متطاول.

ويركز حسان في كلّ أشعاره ما استطاع على النيل من الأعداء وذلك عن طريق الفخر والاستعلاء كأن سبيله إلى الحطّ من عدوه في ذلك الزهو والتعالي الذي يحسّ بوساطته أنه يبلغ من عدوّه به ما يريد من إيذاء واحتقار، يقول في هجاء مزينة التي ناصرت الأوس في حربها مع الخزرج:[1]

جاءت مزينة من عمقٍ لتنصرهم
فرّي مزينة في أستاهِك الفُتُلُ[2]
فكلُّ شيءٍ سوى أن تذكروا شرفاً
أو تبلغوا حسباً من شأنكم جلل[3]

(١) ديوانه ص٢٠١ .
(٢) الفتل: الواحد فتيل وهو الحبل، والأستاه: جمع أست وهي فتحة المؤخّرة.
(٣) الجلل: من الأضداد وهي بمعنى الهيّن والعظيم.

قـومٌ مـدانيس لا يمشي بعقـوتهم
جارٌ، وليس لهم في موطـن بطل[1]

فهو في هذه الأبيات لا يتورّع عن الإيذاء بما يفحش من القول بل نراه يحاول أن ينال من خصومه بما يثير من ألمهم وبما يزيد في تحقيرهم، ومن ثم يقارن بين شرف قومه وشرفهم الذي لا يمكن لهم أن يدانوا فيه قبيله مهما جهدوا، لأنه لا شيء يجمع بين الفضيلة والدنس، والشرف والحقارة، فأعداؤه قومٌ ضعفاء، لا يجيرون وليس لهم في مواطن البلاء ذكر يذكـر أمّا قومه فهم في كلّ أشعاره أهل نجدة وكرم وبلاء.

ويحاول حسّان في شعره الهجائي أن يذلّ الأعداء بكافة الوسائل مستخدماً شاعريته القوية التي تنصبُّ على الأعداء انصباب الصقـر على الفريسـة يقول في هجـاء مذحج:[2]

بـنى الـلؤم بيتـاً على مــذحـج
فكــان على مــذحــج تُــرتُبــاً[3]
ولـو جمعت مـا حــوت مـذحــجُ
من المـجـد مــا أثقــل الأرنـبــا

(١) العقوة: الساحة.
(٢) ديوانه ص٣٢.
(٣) مذحج: أبو قبيلة من اليمن، والترتب: الشيء الثابت المقيم.

ألا ترى في هذين البيتين تهكُّما مرّاً يستخفُّ من أولئك القوم ويجعلهم يغضّون أبصارهم عاراً كما فعلت نمير من بعد هجاء جرير لهم، إن في هذين البيتين من الازدراء والتهكُّم والسخرية ما يجعل مذحج تخنس وتستكين وتعترف بالهزيمة، وفي ذلك الترديد لكلمة «مذحج» ما يؤكّد على حقارتهم واستصغارهم والنيل منهم، ثم إنّ في هذين البيتين من الخفّة والرشاقة ما يسهّل تناقلهما على الألسن بحيث يردّدهما الركبان ويسريان على الألسن سريان النار في الهشيم.

فهذا الشعر الذي يحاول فيه حسان أن ينال من الأعداء ويذلّهم بما يستعمل فيه من أساليب الفحش والإغاضة، هو شعر يخالف فيه الشاعر النهج الجاهلي، ولكنّنا نعود لنقول: بأن حسان لم يكن ليتورّع في سبيل الدفاع عن قومه من أن يستخدم كافة السُّبل حتى ولو كان ذلك الهجاء المقذع الذي يخالف كلّ أدبٍ وحشمة.

الوصف

الوصف من الفنون الشعرية التي لوّن بها حسّان قصائده، والمعروف أنّ حسّان قد أكثر الرحيل والتجوال، وقصد أرض الحيرة وبلاد غسّان، فكان له من مشاهداته وتجواله في الأرض الواسعة مادّة خصبة أغنت خياله ووسّعت أفاق هذا الفنّ عنده، والنفوس الشاعرة المرهفة كالعدسات الحسّاسة تنطبع فيها المشاهد كلّها ويهتزّ فيها حسّ الجمال لمختلف ألوانها، سواء في ذلك ممتعها وموجعها، وضاحكها وعابسها وصاخبها وصامتها وكئيبها ورائعها، ولا شك في أنه قد عرض لحسان في رحلاته الكثيرة ـ ولا سيما في بلاد الشام ـ صورٌ منها، حرّكت في قلبه أوتار الشعر، وغمرته بروعة الجمال، فوصفها في المناسبات التي توافقها من غزل وفخر، وذكرٍ لحياة اللهو والنعيم والشراب التي ذاقها وأحبها في المدينة وفي قصور غسان.

وأكثر الأشياء التي وصفها حسّان في شعره قبل الإسلام الخمر، وكان في وصفها مبدعاً وفي بيان أثرها في الجسوم والأنفس مصوّراً، ذلك لأنه على ما يبدو كان من

صفوة عشاقها ولأنه شهد من مجالسها الحافلة بأرض الشام ما خلّد في نفسه صورتها وما ظلّ يطلّ برأسه في كل مناسبة متردّداً على لسانه،فاسمعه يقول في هذه الأبيات:[1]

أنظر خليلي ببطن جلّق هل
تؤنس دون البلقاء من أحد[2]

جمال شعثاء قد هبطن من المحـ
ـبس بين الكثبان فالسند[3]

يحملن حوّاً، حور المدامع في الرّ
يط وبيض الوجوه كالبرد[4]

من دون بُصرى وخلفها جبل الثـ
ـلج عليه السّحاب كالقدد[5]

تقول شعثاءُ لو تفيقُ من الكأ
س لألفيتَ مُثريَ العدد

(١) ديوانه ص٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) جلّق: دمشق، والبلقاء: كورة من أعمال دمشق.

(٣) المحبس: اسم موضع، والسّند كذلك.

(٤) الحوّ: الواحدة حوّاء، من كان في شفتها سمرة، والحور: جمع حوراء وهي التي اشتد بياض عينها واشتدّ سوادها، والرّيط: جمع ريطة وهي الملاءة.

(٥) القدد: القطع، ولعلّه أراد بجبل الثلج جبل حرمون.

أهـوى حـديث النّـدمـان في فلق

الصبـح وصوت المسـامر الغـرد[1]

يـأبى لي السيف واللسـان وقـو

مُ لم يضـامـوا كـلبـدة الأسـد

لا أخـدشُ الخـدش بـالنـديم ولا

يخشى جليسي إذا انتشيت يـدي[2]

ولا نـديمي العضّ البـخيـلُ ولا

يخاف جاري ما عشت من وبد[3]

فهو في هذه الأبيات المرحة الفتيّة المنزع، الخفيفة الظل، اللطيفة الروح يذكر مواضع في الشام علقت في ذاكرته وظلّت تطلّ برأسها في كل حين مذكّرة بأيّام اللهو والشباب والمتعة، فيتحدّث عن جمال شعثاء، وعن جمال من تحمل الهوادج من النساء في الرقائق والرّياط من كلّ حوراء، ويقسم قسم البرّ المجتهد على وفائه لشعثاء بالعهد، وأنّه ما أحبّ من أحد حبها، ويصل ذلك بلومها له على الإكثار من الشراب، وبإفنائه ما له فيه، فيردّ مقرّراً حبّه لمجالس الخمر، وأنسه بحديث النديم في فلق الصبح،

---

(١) النّدمان: جلساء الشراب، والغرد: المغني.

(٢) أخدش النديم: أعيبه وأؤذيه.

(٣) العضّ: القابض على ماله أي البخيل والسيّء الخلق، والوبد: سوء الحال والفقر.

وتغريد المغنين في الليالي الجميلة الممتعة، ومجالسته الكرام من أمثاله الذين يجودون بما يملكون، كلّ ذلك في لفظٍ عذب وتعبير جميل وتصوير رائع يحرّك في النفوس الحنين إلى عهود الشباب حيث الأنس والسمر، وحيث العزيمة والإصرار، وحيث الذكريات التي لا تنسى، ولا بدّ أن نشير هنا إلى ميزةٍ هامةٍ فيه، وهي أنه في شرابه لا يفقد عقله ولا يؤذي ندماءه، فهو موفور الكرامة يحافظ على أدب الندامة ويحرص على أن لا يشين مجالس الأنس بما يعكر صفوها وروعتها، ومن روائع قصائده التي يذكر فيها الخمر ويصف ساقيها وفعلها وشاربها قصيدته التي مطلعها: [1]

ما هاج حسّان رسومُ المقامْ
ومظعن الحيِّ ومبنى الخيامْ[2]

والنؤي قد هدّم أعضاده
تقادم العهد بواد تهام[3]

قد أدرك الواشون ما حاولوا
فالحبل من شعثاء رثُّ الرّمام[4]

---

(١) ديوانه ص٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(٢) المظعن: مكان الرحيل.
(٣) النؤي: الحفير حول الخيام.
(٤) الرّمام: جمع رمّة وهي القطعة من الحبل.

جـنّـيّــةٌ أرقـنـي طــيـفُــهـا
تـذهب صبحاً وتُـرى في المنام[1]
هــل هـي إلّا ظـبـيـةٌ مــطـفـلٌ
مــألفُهــا السّــدر بنعفي بــرام[2]
تــزجـي غــزالاً فــاتــراً طــرفُــهُ
مقــارب الخــطو ضعيف البـغــام[3]
كــأنّ فــاهــا ثـغـبٌ بــاردٌ
في رصفٍ تحتَ ظـلال الغمامِ[4]
شـجّـت بـصـهـبــاء لـهــا ســورةً
من بيت رأسٍ عتّقت في الخيام[5]
عتّقهــا الحــانــوت دهــراً فـقــد
مرّ عليهـا فــرطُ عـام، فعــام[6]
نشــربهــا صــرفــاً ومـمــزوجــةً
ثمّ نغنّي في بيــوت الــرّخــام[7]

---

(١) أرّق: منع عنه الرّقاد.

(٢) المطفل: ذات الأولاد، والسّدر: شجر النبق أو النعف: الجانب، وبرام: اسم وادٍ.

(٣) تزجي: تسوق، والبغام: صوت الظبي.

(٤) الثغب: الغدير بين الظلال، والرّصف: الحجارة المتراصفة.

(٥) شجّت: مزجتَ، والصهباء: الخمر، والسّورة: الغضب والحدّة، وبيت رأس: مكان.

(٦) الحانوت: بائع الخمر، والفرط: الحين.

(٧) الصرف: الخالصة، وبيوت الرّخام: أي القصور.

تــدبُّ في الجـسم دبيبـاً كـمـا
دبّ وسط رقـاقٍ هـيـام[1]
كـأسـاً إذا مـا الشيخ والى بهـا
خـمـسـاً تـردّى بـرداء الـغـلام
مـن خـمـر بـيـان تـخـيّـرتـهـا
دريـاقـة تـورث فتـر الـعـظام[2]
يـسعـى بهـا أحـمـرٌ ذو بـرنسٍ
مختلف الذّفرى شديد الحـزام[3]
أروع لـلـدعـوة مـسـتـعـجـلٌ
لم يثنـه الشـان خفيف القيـام[4]

في هذه القصيدة التي حاولنا أن نثبت أكثر أبياتها لنقف على وصفه الجميل الذي تقاسمه الغزل والخمر، وهما في رأينا وسيلة المتعة ومظهر التلذّذ والنشوة، فقد أحسن حسّان في غزله، كما أحسن في وصفه للخمر، فإذا هو في وصفه لشعثاء حبيبته التي لا تفارق عينيه في منام ويقظة، وهذا دليلٌ على حبٍّ أكيد، وتعلّق بها وطيد، يرى

---

(١) الدُّبى: صغار النمل، والرقاق: الرمل المستوي اللين.
(٢) الترياق: دواء ضدّ السّموم، والفتر: الضعف الإنكسار.
(٣) الأحمر: أراد به غلاماً غير عربي، ومختلق: مطلي بالخلوق، والذفرى: العظم الشاخص خلف الأذن
(٤) أروع: مستعد وجاهز للخدمة.

أنّ شعثاء كجنّيّة جميلة تراود خياله في كلّ أنس، وتتمثّل له في كل صفوٍ وسعادة وأنّى له أن ينسى جمالها وهي مثل الغزال المطفل الذي يحنو عليه كما تحنو المطفل على أولادها وتسهر على راحته وهنائه، إنّها ولا شك مبعثٌ لسعادته، وظلٌ وارفٌ يلتجيء إلى فيئه، وشرابٌ منعش يكسر به حدّة ظمئه، لقد أجاد حسان في وصف شعثاء وفي المزج بين صورتها الجميلة وآثارها الحلوة وفعلها المؤثر في النفس والذي يثير النشوة كما تثيرها الخمر في الشاربين، فهذا المزج بين صورة المرأة وبين صورة الخمر وهذا الانتقال الجميل من مشهدٍ إلى مشهد ومن صورة إلى صورة واستخدام الطبيعة في سبيل ذلك الانتقال أضفى على هذه القصيدة نوعاً من الانسجام والتوحّد الذي يمكن لنا أن نستمد أسبابه من صدق المشاعر التي تبدو جلية ظاهرة في حبّ حسان لما يرى فيه سعادة وأنساً ومتعةً وحياة، «وحسبك من دقة تصويره لأثر الخمر والإحساس بدبيبها في الجسم أنه يتمثله بسريان النمال في الدقيق الناعم من الرمال، وكأنها بما تحدثه في الشاربين من نشوة وبما تمدّهم به من سورة، قادرة على أن تردّ الشيخ الفاني غلاماً فتيّاً» وإنك لترى في أوصاف حسان أثر البيئة الشامية واضحاً في جمال تشبيهاته وإبداعه في تصوير الخمر وتصوير أثرها وساقيها، وذكره لأماكن احتسائها في القصور وبين مواطن الجمال.

ولن نقتصر في الحديث على الوصف عند حسان على ذكر المرأة والخمر، لأن حسّان كغيره من الشعراء الجاهليين الذين وصفوا في أشعارهم كلّ معالم بيئتهم، فقد ذكر حسّان في شعره الناقة والحصان والبرق والمطر والصّيد والليل ورسوم المنازل ولم يترك معلماً من معالم بيئته إلاّ وقال فيه شعراً، ولكننا هنا سنكتفي بذكر ما أبدع فيه، ويطيب لنا أن نختتم وصفه بالاستماع إلى ما قاله في وصف البرق والسّحاب والمطر يقول حسان:[1]

ألم تسأل الرّبع الجديد التكلّما
بمدفع أشداخٍ فبرقَةِ أظلما[2]
أبى رسمُ دار الحيّ أن يتكلّما
وهل ينطق المعروف من كان أبكما

إلى أن يقول:

أقامت به بالصيف حتى بدا لها
نشاصٌ إذا هبّت له الرّيح أرزما[3]
فلمّا دنت أعضادُهُ ودنا له
من أرض دانٍ جوزُهُ فتحمحما[4]

---

(١) ديوانه ص٢١٨ ـ ٢١٩ .
(٢) المدفع: مجرى السّيل.
(٣) النشاص: السّحاب، وأرزم: أرعد.
(٤) أعضادُه: نواحيه، وجوزه: وسطه، وتحمحم: صوّت رعده.

تحنّ مطافيل الرّباع خلاله
إذا استنّ في حافاته البرق أسجما[1]
وكاد بأكناف العقيق وئيدُهُ
يحطّ من الجمّاء ركناً ململماً[2]
فلما علا تُربان فانهلّ ودقُهُ
تداعى وألقى بركه وتهزّما[3]
وأصبح منه كلّ مدفع تلعةٍ
يكبُّ العضاه سيلُهُ ما تصرّما[4]
تنادوا بليلٍ فاستقلت حمولهم
وعالين أنماط الدّرقل المرقّما[5]
عسجن بأعناق الظباء وأبرزت
حواشي برودِ القطر وشياً منمنما [6]

ففي هذه الأبيات يذكر حسان البرق والغيم والمطر، بأوصاف ترى لها مثيلاً عند امرىء القيس وعبيد بن

---

(١) المطافيل: الإبل المطفلة، واستنّ: عدا، وأسجم: سال.
(٢) العقيق: وادٍ بالمدينة، وئيده: صوته، والرّكن: الجانب، والململم: المجموع.
(٣) الودق: المطر، تداعى: برق ورعد من كلّ جانب، وتهزّم: تشقق بالماء.
(٤) التلعة: سيل الماء، والعضاه: شجرٌ، وتصرّم: انقطع.
(٥) الأنماط: الثياب المصبّغة، والدّرقل: ضربٌ من الثياب، المرقّم: الموشّى.
(٦) عسجن: مددن، والقطر: ثياب اليمن.

الأبرص، فهو هنا يتابع السّحاب الذي تراكم بعد انقضاء الصيف فوق أماكن حدّدها ويذكر كيف أغدق السّحاب المطر وصبّه صبّاً في تلك النواحي بعد أن دنا من الأرض وصوّت الرّعد، وأنار البرق الظلمات، فإذا بالسّيول المنبثقة عن انصبابه تحمل في طريقها الأشجار فتقتلعها من جذورها، ولكثرة ذلك المطر وانصبابه الشديد تحوّل عن أماكن وقوعه من كان يقيم فيها هرباً من الأذى والضّرر، وقد خلّف ذلك المطر في الأرض بعد انصبابه بروداً منمنمة بما أنبت فيها من عشبٍ ونبات، تلك هي أهم الموضوعات التي عرض لها حسان في أشعاره وإن كنّا لم نذكر غزله ورثاءه، فذلك لأن الغزل في أشعاره جاء متفرّقاً، ولا تخلو منه قصيدة لأنّه على عادة الشعراء الجاهليين كان يستهلّ به قصائده ومن ثم ينتقل بعد ذلك إلى موضوعات متعدّدة فنون أخرى، أمّا الرّثاء فقد كان قليلاً في شعره، ولكننا سوف نشير إليه في حديثنا التالي على شعره الإسلامي.

شعره الإسلامي

حسّان من الشعراء المخضرمين الذين عـاشوا في الجاهلية والإسلام، ولقد كانت الفترة التي عاصر حسّان فيه الإسلام كبيرة إلى حدّ جعلت شعره في الفترة الإسلامية غزيراً ووفيراً فلقد أكثر حسان من الشعر في هذه الفترة التي كان فيها منافحاً عن الإسلام والرسول ضدّ الكثير من الشعراء الذين تناولوهما بالنّقد والتجريح، ولما قُبض الرسول قلّ شعر حسان ربّما بسبب الأحداث الإسلامية، ولكنّ الفترة التي قضاها في معاصرة الرسول كانت فترة غنية بالنظم، فقد بلغ شعره فيها أضعاف ما قاله في الجاهلية منه، ويبدو أن هذه الكثرة كانت بدافع الـذود عن الإسلام ونصـرةً من حسان له حيث لم يكن بمقدورِهِ أن ينصره بيده لطبيعته التي تخاف الحروب والمواجهات فنصره بلسانه فصوّر في أشعاره معارك المسلمين وانتصاراتهم ورثى قتلاهم وردّ على الأعداء بكلّ ما أوتي من شاعرية خصيبة، وقد تناول في شعره الإسلامي مختلف الفنون الشعرية السابقة، فافتخر ومدح ورثى وهجا وتغزّل إلى غير ذلك إلاّ أنه في شعر هذه الفترة حاول قدر الاستطاعة أن يتمثل الروح الإسلامية الجديدة فيذكر قيمها

وتعاليمها، ومع ذلك كلّه فإنّ القارىء لشعره في هذه الفترة يدرك أن تأثّر حسّان بالإسلام كان ضعيفاً نظراً لأن شعره كان ينظم ردّاً على المشركين، وهذا الرّد يستوجب أن يتضمّن نفس المعاني الجاهلية التي يمكن بوساطتها أن تنال منهم ولذلك كان الردّ على سبيل المعارضة والنقض لما جاء في قصائدهم وتضمّن ذكراً للمواقع والأيّام والاحساب كما تضمّن قيماً جاهلية حاول حسّان في شعره أن ينتقص بذكرها من قدر المهجو وإيذائه، وهذا هو الرّد السليم على الشعراء الجاهليين لأنه لو نعتهم بعدم الإيمان بالله ورسوله لما أثر ذلك فيهم لأنهم فعلاً لا يؤمنون بهما، ولذلك ركّز حسّان على ما كان بإمكانه أن يؤذي الخصوم وينال منهم، ولذا فإنّ شعره لم يكن بعد إسلام هؤلاء القوم بمصدر إزعاج لهم لأنه تناول أشياء نبذوها وكان شعر عبد الله بن رواحة هو الشعر الذي آذاهم لأنه نعتهم بالكفر وعدم تصديق الرسالة الإلهية.

ولكي نقف على حقيقة شعره الإسلامي فلا بدّ لنا في هذا المجال من أن نذكر بعض قصائده التي قالها في أغراض متنوعة حتى نقف على هذه الحقيقة ونستجلي من الشعر مدى تأثر حسّان بالإسلام، فلنستمع معاً إلى قصيدته التي مطلعها: (١)

(١) ديوانه ص٢٠٧ ـ ٢١٠ .

لك الخير غُضّي اللوم عنّي فإنّني
أحبّ من الأخلاق ما كـان أجملا
فـإن كنت لا منّي ولا من خليقتي
فمنك الذي أمسى عن الخير أعـزلا
ألم تعلمي أنّي أرى البخـل سُبّـةً
وأبغض ذا اللونـين والـمتـنقّـلا(١)
إذا انصرفت نفسي عن الشيء مرّةً
فلست إليـه آخـر الـدهـر مقبـلا
حيث يقـول بعد ذلك:
وإنّـا لـقـومٌ مـا نـسـوّد غـادراً
ولا نـاكلاً عنـد الحمـالـة زمّـلا(٢)
ولا مـانعـاً للمـال فيمـا ينـوبـه
ولا عاجزاً في الحرب جيشاً مغفّلا(٣)
نسـوّد منّا كـلّ أشيب بـارع
أغـرّ تـراه بـالـجـلال مكـلّلا
إذا ما انتدى أجنى النّدى وابتنى العلا
وألفي ذا طـولٍ على من تطوّلا(٤)

---

(١) السُّبّة: العار.
(٢) الناكل: الناقص الجبـان، والزّمّل: الضعيف الخائف.
(٣) الجبس: الثقيل الذي لا يجيب إلى الخير.
(٤) انتدى: جلس في النادي، وأجنى: أعطى، وذو الطول: أي ذو القوّة.

تطبع فعـال الشيـخ منّـا إذا سمـا
لأمـرٍ ولا نعيا إذا الأمـر أعضلا[1]
لـه أربـةٌ في حـزمـه وفعـالـه
وإن كان منّاً حازم الرأي حـوّلا[2]
ومـا ذاك إلاّ أنـنـا جَعَلت لـنـا
أكـابـرُنـا في أوّل الخيـر أوّلا
فنحن الذّرى من نسل آدم والعُرى
تـربّع فينـا المجـد حتى تـأثّـلا[3]
بنى العـزّ بيتـاً فـاستقـرَّت عمـادُهُ
علينـا فـأعيـا النـاس أن يتحـوّلا
وإنّك لن تلقى من الناس معشـراً
أعـزّ من الأنصـار عـزّاً وأفضـلا
وأكثـر أن تلقـى إذا مـا أتيـتهـم
لهم سيّداً ضخم الدّسيعة جحفلا[4]
وعـدّاً خـطيبـاً لا يـطاقُ جـوابـه
وذا أربـةٍ في شعـره متنخّـلا[5]

---

(١) أعضل الأمر: اشتدّ.

(٢) الأربة: الدّهاء،والحـوّل: الحسن التصرّف في الأمور.

(٣) العرى: الواحدة: ما له من دق الشجر أصلٌ باق في الأرض.

(٤) الدسيعة: المائدة، والجحفل: السيّد العظيم القدر.

(٥) العدّ: الماء المتدفّق، وذو أُربة: ذو شدّة، والمتنخّل: المتخيّر.

واصين نهّـاضـاً إلى السيف صارمـاً
إذا ما دعا داع إلى الموت أرقلا[1]
لنـا حـرّة مـأطـورةٌ بجبـالهـا
بنى المجـد فيهـا بيتـه فتـأهّـلا[2]
جعلنـا لهـا أسيـافنـا ورمـاحنـا
من الجيش والاعراب كهفاً ومعقلا
إذا جمعـوا جمعـاً سمـونـا إليهم
بهنـديّةٍ تُسقى الـزِّعـاف المثمّـلا[3]
نصْرنـا بهـا خير البـريّة كلّهـا
إمـاماً ووقّـرنـا الكتـاب المنـزّلا[4]
نصـرنـا وآوينـا وقـوّم ضـربُنـا
لـه بالسّيـوف ميل من كـان أميـلا
فمن يـأتنـا أو يلقنـا عن جنـايـةٍ
يجـد عندنـا مثوىً كـريماً ومـوئلا
نجيـر فـلا يخشى البـوادر جـارُنـا
ولاقى الغنى فـي دارنـا متـمـوّلا

إنّ قراءة لهذه الأبيات، فيها بعض التأنّي، تجعلنا

(١) والأصين: الذي يرفع رأسه كبرا، وأرقل: أسرع.
(٢) الحرّة: أراد بها أرضاً في المدينة حجارتها سود، والمأطورة: المحاطة.
(٣) الزِّعاف: السمّ القاتل، والمثمّل: المقوّى بمادة تسعفه على القتل.
(٤) خير البرّية: أراد الرسول عليه الصلاة والسلام.

نـدرك تمامـاً أنّ حسّان لم يخـرج في شعـره بُعيد الإسـلام عن النمط الجاهلي، فهو في كل الأشياء التي ذكرها يبدو شاعراً جاهلي النزعة، ومع أننا حاولنا أن نختار من تلك القصيدة بعض الأبيات إلّا أنّ اختيارنا ظلّ يتناول رغماً عنا مثل ذلك الشعر الذي يفخر فيه بنفسه ومن ثمّ ينتقل إلى الفخر بقومه فيغدق عليهم كلّ النعوت الجاهلية فهم السّادة أهلُ العزّ والشّرف والمجد المؤثل، وهم أهل الحـرب والشجاعـة والانتصارات أو هم أهل الرياسة والسيادة والكرم العطاء، وهم الذين يبذلـون الدّمـاء دفاعـاً عن الحسب والشرف والأعراض والدّيار، وهم الذين يجيـرون ويقرون ويحسنون إلى من طلب الرفد والإحسان، إنّ كل ذلك فخر جاهلي واعتدادٌ قبلي، ولولا إيراده لهذين البيتين اللذين ذكر بهما نصر قومه للرسول لخلت قصيدته من كلّ مضمون إسلامي، وحتى أن هذين البيتين اللذين يقول فيهما:

نصـرنـا بهـا خيـر البـريّـة كلّهـا
إمـامـاً ووقّـرنـا الكتـاب المنـزّلا
نصـرنـا وآويـنا وقـوّم ضـربنـا
لـه بالسّيـوف ميل من كـان أميـلا

فإننا لا نجد فيهما الروح الإسلامية الصافية التي تمثل التعاليم الإسلامية لأنّهما لم يخرجا عن الإفصاح عن معانٍ

فيها من الجاهلية قبس، ولم يعدو النصر والتوقير والدّفاع، وكأنّ الشاعر فيهما يحاول أن يتمجّد بسيِّدٍ من سادات قومه لا بنبيٍّ وكتاب كان لهما الأثر الكبير في تغيير مسار الحياة وتقدّم الإنسانية.

إنّ حسّان كما قلت لم يتمثل الروح الإسلامية ولا ذلك التغيير في البناء القائم للمجتمع ذلك التغيير الذي نقل العرب من الجهالة والبداوة والضلالة، إلى مستوى الأمم الراقية التي أنارت للحق طريقاً وأشعلت للهداية مناراً.

وإذا حاولنا أن نتتبّع حسّان في أغراضه الشعرية بعد الإسلام فإننا كما قلنا سوف نجده يركز في أكثرها على المعاني الجاهلية التي لم يستطع أن يتحوّل عنها لأسبابٍ نعتقد أن الردّ على المشركين بما يؤلمهم ويؤذيهم كان من أهمها، ولنستمع إلى حسّان في هجائه للحارث بن هشام المخزومي حيث يقول:[1]

تبلت فؤادك في المنام خريدة
تسقي الضجيع ببارِدٍ بسّام[2]
كالمسك تخلطه بماء سحابةٍ
أو عاتقٍ كدم الذبيح مدام[3]

(١) ديوانه ص٢١٤ ـ ٢١٦ .

(٢) تبلت: أسقمت، والخريدة: الحبيبة الساكنة.

(٣) العاتق: الخمر.

نُفُــج الحقيبـة يــوصُهــا متنضِّــدٌ
بلهــاء غيــر وشيكــة الأقســام[1]
بُنيـت عـلى قــطن أجـمَّ كــأنَّــه
فُضُـلًا إذا قعدت مـداك رخـام[2]
وتكـاد تكسـل أن تجيء فـراشهـا
في لينِ خَــرعبـةٍ وحسن قــوام[3]
أمَّــا النهـار فــلا أفتّــر أذكـرهـا
والليــل تــوزعني بهــا أحـلامي[4]
إقسمت أنسـاهـا وأتــرك ذكـرهــا
حتى تغيَّب في الضّريح عظامـي[5]
يــا من لعــاذلـة تـلوم سفـاهــةً
ولقـد عصيت إلى الهـوى لــوّامي
زعمت بـأنَّ المـرء يكـرُبُ يـومــه
عُــدْمٌ لمعـتكــرٍ مـن الأصــرام[6]

---

(١) النفج: المرتفعة، واليوص: الرّدف، والبلهاء: العفيفة.
(٢) القطن: ما بين الوركين، وأجمّ: مكتنز اللحم، والمداك: حجرٌ يسحق عليه الطيب.
(٣) الخرعبة: اللينة.
(٤) توزعني: تولعني.
(٥) أي أقسمت لا أنساها، فقد حذف لا النافية بعد القسم.
(٦) يكربه: يحزنه، والمعتكر: المال الكثير، والأصرام: جمع صرمة وهي القطعة من الإبل.

إن كنت كـاذبـة الـذي حـدّثتني
فنجـوت منجى الحارث بن هشـام
تـرك الأحبّـة أن يقـاتـل دونهم
ونـجـا بـرأس طـرّةٍ ولـجـام(١)
جـرواء تمـزعُ في الغبـار كـأنّهـا
سـرحان غـابٍ في ظلال غمـام(٢)
مـلأت بـه الفـرجين فـارتـدت بـه
وثـوى أحبتـه بشـرّ مـقـام(٣)
وبنـو أبيـه ورهـطه فـي معـركٍ
نصـر الإلـه بـه ذوي الإسـلام
لـولا الإلـه وجـريُهـا لتـركنـهُ
جـزر السّبـاع ودسنـه بحـوامي(٤)
طـحـنتـهُـمُ والله ينـفُـذُ أمـرُهُ
حـربٌ يشبُّ سعيـرهـا بضـرام
من كـلّ مـأسـورٍ يُشَـدُّ صفـاده
صقـرٍ إذا لاقى الكتيبـة حـامي(٥)

(١) الطمرّة: الفرس الوثابة.
(٢) الجرواء: التي تتفنّن في جريها، وتمزع: تثب.
(٣) ملأت به الفرجين: أي اشتدّت به عدواً، وأرمدت: أسرعت.
(٤) جزر السّباع: أي مأكلاً للسباع، والحوامي: الحوافر.
(٥) الصفاد: القيد.

فسلحت إنّك من معاشر خانةٍ
سُلْح إذا حضر القتال لئام[1]
فدع المكارم إن قومك أسرةٌ
من ولد شجع غيرُ جدٍّ كرام
من صُلب خِنْدِف ماجدٍ أعراقه
نجلت به بيضاء ذات تمام[2]
ومرنّح فيه الأسنة شرّعاً
كالجفر غير مقابل الأعمام[3]

ففي هذه القصيدة التي يبدؤها حسان متغزلاً في شعرٍ رقيق نلمح فيه ميل حسان إلى اللهو وحنينه إلى أيّام الصبابة والعشق نجده يتعرّض للحارث المخزومي بما يشينه، فيعيّره بالجبن والفرار من ساحة المعركة تاركاً قومه تنالهم سيوف المسلمين فتقتل منهم من تقتل، وتحيط بمن بقي في أرض المعركة فيقعون أسارى في أيدي المسلمين، وحسّان رغم هجائه للحارث والنيل من صفاته الأخلاقية التي سُلبت كلّ كرامة وفضل فإنك تراه لم يضنّ على قومه ببعض الانصاف فيصف أحدهم كالصقر عند اللقاء، ومع ذلك كلّه فإن حسّان في هجائه يركّز على ما ركّز عليه الجاهليون في هجائهم إذ هو

(١) سلحت: أي من الجبن والخوف.
(٢) البيضاء: النقية العرض.
(٣) المرنّح: المتمايل من الشراب، والجفر: الجدي إذا استكرس.

يحاول أن يسلب المهجو كلّ كرامة و يحطّ من قدره بكافة الصفات والنعوت، ولم يحاول مثلاً أن ينعتهم بالكفر وعدم تصديق الدعوة، بـل أراد في شعره أن يؤلمهم وينال منهم بالأشياء التي يرون فيها انتقاصاً لمكانتهم وقدرهم، وهكذا كان حسّان في كلّ هجائه يحاول أن يركز على ما فيه تجريحُ بالخصم وتقريعٌ مذلٌّ له، يقول في هجاء المغيرة بن شعبة الثقفي :(١)

لَوَ أنَّ اللؤم يُنسب كان عبداً
قبيح الوجه أعوَرَ من ثقيفِ
تركت الدّين والايمان جهلاً
غداة لقيت صاحبة النّصيف(٢)
وراجعت الصّبا وذكرت لهواً
من الأحشاء والخصر اللطيف

فهو هنا يحاول أن ينال منه بنسبة اللؤم إليه وإلى قومهِ ثم ينتقص منه أيضاً فيصوّره إنساناً ناقص العقل يدع الايمان والفضل، ويركن إلى الشهوات والمتع البهيمية الزائلة.

ونمضي مع حسّان في شعره الاسلامي حتى نتبين ما ترك الاسلام فيه فنصل إلى مدحه حيث نجد حسّان يمدح

---

(١) ديوانه ص١٦١ .
(٢) النصيف: ثوبٌ تلفُّه المرأة على رأسها.

الرسول وأصحابه بما لا يختلف في مضمونه كثيراً عن مضمون المدح في الجاهلية يقول حسّان: [1].

مستشعري حلق الماذيّ بقدمهم
جلد النحيزة ماضٍ غيرُ رعديد[2]
أعني الرسول فإنّ الله فضّله
على البرّية بالتقوى وبالجود
مستعصمين بحبلٍ غير منجذمٍ
مستحكمٍ من حبال الله ممدود[3]
فينا الرسول وفينا الحق نتبعُهُ
حتى المماتِ ونصرٌ غير محدود
ماضٍ على الهول، ركّابٌ لما قطعوا
إذا الكماة تحاموا في الصناديد[4]
وافٍ وماضٍ، شِهابٌ يستضاء به
بدرٌ أنار على كلّ الاماجيد[5]
مباركٌ كضياء البدر صدرته
ما قال كان قضاءً غير مردود

---

(١) ديوانه ص٤٨ .
(٢) مستشعرين: لابسين، والماذي: الدروع، والرعديد: الجبان.
(٣) منجذم: منقطع.
(٤) ماضٍ على الهول: أي لا يعرف الخوف.
(٥) الأماجيد: الأشراف.

فهو في هذه الابيات يشبه الرسول بالشهاب والبدر وبأنه النور الذي يهتدي به الضالون ورسالته الحق، وأصحابه الابطال الصناديد الذين وهبوا أنفسهم في سبيل الدفاع عن الدين وصاحب الدعوة، فهم سمّاعون لكلامه، وكلامه الفصل الذي لا كلام بعده، فحسّان كما نرى يركّز على الفضائل النفسية والخلال الحميدة التي كان العرب يركّزون عليها مضيفاً إلى ذلك ما استجدّ على هذه الفضائل والسجايا من معانٍ جديدة أوجدها الاسلام، ولكنها معانٍ سطحية لم تستطع أن تتعمق المعاني الاسلامية التي كان لها قدرة التغيير وبعث الفجر الانساني الجديد، ونمضي مع حسان مستشعرين معانيه الاسلامية في شعره بعد الاسلام فنقف مع قصيدته التي يرثي فيها الرسول محاولين أن نظهر ما أمكن من تأثّره الاسلامي، لأن في الرثاء الصادق تظهر المرارة والألم، ويظهر التأثّر البالغ الذي لا يقتصر على افتقاد الانسان بل على افتقاد كلّ ما يمثله وخاصة إذا كان الانسان مثالاً كاملاً ونوراً وهداية، كالرسول الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، يقول حسان: [1]

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهدُ

منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتهمد

---

(١) ديوانه ص٥٤ ـ ٥٧ .

ولا تنمحي الآيات من دار حرمةٍ
بها منبرُ الهادي الذي كان يصعد
وواضح آياتٍ وباقي معالمٍ
وربعٌ له فيه مصلّى ومسجد
بها حجراتٌ كان ينزل وسطها
من الله نورٌ يستضاء ويوقد
معالمُ لم تطمس على العهد آيُها
آثارها البلى فالآي منها تجدَّد
عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبراً به واراه في التُّرب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدتْ
عيونٌ ومثلاها من الجفن تسعد[1]
تذكّر آلاء الرسول وما أرى
لها محصياً نفسي فنفسي تبلّد
مفجّعةٌ قد شفّها فقد أحمدِ
فظلّت لآلاء الرسول تعدّد
لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً
عشيّة علّوه الثّرى لا يوسّد
وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيّهم
وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعضد

(١) أسعدت: أعانت وأسعفت.

يبكـون من تبكي السموات يـومـه
ومن قد بكته الأرض فـالناس أكمـد
وهـل عـدلت يـومـاً رزيـة هـالـكٍ
رزيَّة يــومٍ مــات فيــه محـمّــد
ومـا فقـد المـاضـون مثــل محمّـد
ولا مِـثلُهُ حتى الـقيـامــة يـفـقــد
أعــفّ وأوفــى ذمّــةٍ بــعــد ذمّــةٍ
وأقــرب منــه نــائــلاً لا ينكّــد[1]
وأبــذل مــنــه لـلطريــف وتــالــدٍ
إذا ضنّ معــطاءُ بمـا كــان يُتْلدِ[2]
وأكـرم حيّـاً في البيــوت إذا انتمى
وأكرم جــدّاً أبــطحيّــاً يســوّد[3]
وأمـنــع ذرواتٍ وأثبـت في الـعُـلى
دعــائـم عــزٍ شــاهقــاتٍ تـشـيّــد

في هذه القصيدة التي تعتبر من خير ما رثى به حسّان أحداً من الناس، إذ أننا نراها تحمل في مضمونها كثيراً من المعاني الاسلامية كما تحمل صدق العاطفة وتأثّر المشاعر وعظيم النكبة.

---

(١) النـائـل: العطاء، وينكدّ: يكدّر.
(٢) الطريف: المحدث من المال، والتليد: القديم منه.
(٣) الأبـطحي: نسبة إلى الأبـطح بمكة ونزله أكرم قريش.

يبدأ حسّان قصيدته بذكر طيبة مدينة الرسول ومقرّ جسده الشريف فيرى فيها الآيات المنيرة والمعالم الهادية والاماكن المضيئة التي كانت للوحي موطنا، وللرسالة مبعثاً وللأنوار متنزّلاً، إنها أماكن ومعالم لا يمكن أن يطاولها البلاء أو يحلّ بها الفناء، لأنها أماكن الدعوة الخالدة المتجدّدة، الدعوة المباركة التي أراد الله لها أن تخلد وتنتشر ويعمّ نورها كلّ الأرجاء ولو كره المشركون والملحدون والمنافقون، ففي تلك البقعة المباركة من الأرض وقف حسّان يستمطر الدموع لوعةً وحزناً فقد خير البرّية، ويطلب من عينيه أن تسعفاه على الدموع التي تخفّف من بثّه وشكواه، فهو قد فقد في فقد الرسول العظيم الحبيب والهادي والموجه والمرشد والعضد والساعد، فقد كما فقد كلّ المسلمين القائد والبشير والنبيّ المنير، إنه يومٌ لايعدله أيّ يوم، ورزيّة لا تعدلها رزيّة مهما عظمت، فليس كفقد الرسول فقد ما دامت الأرض والسماء، إنه فقد للنور والهداية وفقد للمكارم والمآثر والفضائل والمحامد، إنّه فقد للعلى والعز والذروات إنّ فقد الرسول فاجعة ليس كمثلها، ورزءٌ تهون معه كل المصائب والأرزاء، لقد كان حسّان في رثائه هذا صادقاً ولكنّه ظلّ فيه يركز على الجوانب التي ركّز عليها الشعراء آنذاك في رثائهم رغم أنه حاول أن يستمدّ من مضمون الدعوة الاسلامية ما يسعفُهُ على إظهار حزنه ويمدّه على تصوير عظيم مأساته وتأثره إلاّ أنه ظلّ

في إطار الدعوة السطحي ، ولم يستطع أن يبتعد أو يغوص في الجوهر ويستلّ من الأعماق المؤثرة ما يزيّن به رثاءه ويصوّر عظيم فاجعته وأساه.

وهكذا نجد حسّان حتى في شعره الاسلامي لم يفارق النهج الجاهلي الذي سلكه غيره من الشعراء، ولم يستطع أن يكون المجدّد المستفيد من رحاب الدعوة المباركة ليسرح في رحاب الشعر الانساني الذي تمثله تلك الدعوة.

الحكمة والمثل

حسّان كغيره من الشعراء الذين نظروا في الحياة نظرة متأمّلة وتطلّعوا إليها بعين المتفحّص، فاستفاد من تجارب الحياة وتأدّب بآداب الاسلام وأخلاقه، فكان له من كلّ ذلك زاداً وافراً ومعيناً ثرّاً زيّن به شعره وحمّله كثيراً من الحكم والنصائح والارشادات فمن أقواله التي جرت على الألسن، وحملت أفانين الحكمة البالغة قوله:[1]

رُبّ حلمٍ أضاعه عدمُ المال
وجهلٍ غطّى عليه النّعيم
ما أبالي أنبّ بالحَزْن تَيْسٌ
أم لحاني بظهر غيبٍ لئيم[2]

فحسّان يسخر من الزمن الذي يصبح المال فيه قادراً على أن يرفع ويضع، فيبخس من أولي الحلم علمهم وفضلهم وقدرهم، ويغطي بما له من سلطة ونفوذ على جهل الجهلاء فيرفع من شأنهم ويحلّهم المكان والقدر الذي هم ليسوا فيه.

(١) ديوانه ص٢٢٥ .
(٢) نبَّ: صاح، والحزن: ما غلظ من الأرض، ولحاني: لامني.

وحسّان يقف من المال موقفاً رائعاً بحيث لا يجعل المال يتحكّم به أسوة بالجهلة وإنما المال عنده وسيلة يوظّفها في سبيل الوصول إلى الغايات المثلى يقول حسان: [1].

وأجعل مالي دون عرضي وقايةً
وأحجبه كي لا يطيب لآكل
وأيٌّ جديدٍ ليس يدركه البلى
وأي نعيمٍ ليس يوماً بزائلْ

فهو هنا، يجعل من ماله وقايةً لعرضه وصوناً لشرْفه، وينزهه عن الغاية التي وجد من أجلها، إنّه يتحكّم بالمال ويوظفه في سبيل الخير لأن كلّ شيء صائر إلى البلاء، ويبقى من الانسان الذكر الحسن والفعل الجميل ولحسان أشعارٌ جرت مجرى المثل فمن ذلك قوله: [2]

لا عيب بالقوم من طولٍ ولا عظمِ
جسم البغال وأحلام العصافير
لا ينفع الطول من نوك القلوب ولا
يهدي الآله سبيل المعشر البور[3]

فالإنسان في رأي حسان ليس جسماً ولحماً، طويلاً وقامة مديدة، وإنّما هو بالعقل والفعال، وهل يحمل الشرف

---

(١) ديوانه ص١٨٤ .

(٢) ديوانه ص١٢٢ - ١٢٣ .

(٣) النوك: الحمق.

والسّيادة إلاّ الرجل الذي أوتـي من العقل حظاً وافراً ومن الرأي سداداً وحكمة وبعد نظر، فالانسان بعقله القادر على أن يهتدي به إلى طريق الخير والرشاد، ويفتح الله له به كل هداية وصواب.

ومن شعره الذي يذهب فيه مذهب النصح ويضرب به الأمثال قوله:[1]

فـإنّا ومن يُهـدي القصـائـد نحـونـا
كمستبضعٍ تمراً إلى أهـلِ خيبرا[2]
فــلا تـك كــالـوسـنـان يحلم أنّــه
بقـريـة كســرى أو بقـريــة قيصـرا
ولا تـك كـالشّـاة التي كـان حتفهـا
بحفـر ذراعيهـا فلم تـرضَ محفـرا
ولا تـك كـالـعـاوي فـأقبـل نحـرَهُ
ولم يخشهُ سهماً من النّبل مضمرا[3]
أتفخـر بـالـكتّـان لـمّـا لبستـه
وقـد تلبسُ الأنباط ريطاً مقصّـرا[4]

---

(١) ديوانه: ص١٠٩.
(٢) المستبضع: جالب البضاعة.
(٣) أقبل نحره: عرّضه للسّهام.
(٤) الأنباط: جيل من الناس كان يسكن سواد العراق، والشريط: الثياب الرقيقة، والمقصر: المحور.

فحسّان ينصح الانسان في التفكير في أي فعلٍ يفعله أو يقدم عليه لأن كثيراً من الأفعال التي تحمل التهور والجهل تقود الإنسان إلى حتفه أو إلى أن يلاقي ضروباً من الخسارة والندم.

وأخيراً ننهي حديثنا الموجز عن الحكمة والمثل في شعر حسان بأبيات تظهر لنا بعضاً من أخلاقه ومزاياه يقول حسّان: (١)

لـك الخيرُ غضّي اللوم عنّي فـإنّني
أحبُّ من الأخـلاق ما كـان أجمـلا
ألم تعلمي أنّي أرى البخـــل سـبَّـةً
وأبـغض ذا اللونـيـن والـمـتـنـقــلا
إذا انصـرفت نفسي عن الشيء مرّةً
فلست إليــه آخـر الــدهــر مقبــلا

فحسان هنا يذكّر بأن الرجل الرجل هو الذي يقف عند رأيه ومعتقده في الحياة، وهو لا يحبّ أن يكون إمّعة يميـل حيث الريح تميل بل هو الرجل الذي يحافظ على العهود والمواثيق ويتمسّك بالأخلاق والفضائل، ويكره البخل الذي يجلب العار إلى صاحبه، فإذا أصدر حكماً أو اتخذ قراراً، أو عزم أمراً فإنه يقف عنده ويتحمل في سبيله كلّ النتائج، إنّه الاعتقاد والإيمان، وهما لا يخضعان للرّد ولا للمناقشة.

(١) ديوانه ص٢٠٦ .

الخصائص العامة لشعر حسّان

أغراضه ومناهجه

لقد كان حسّان من المجدّدين في شعره وقد أتاحت له حياته الطويلة ومعاصرته لعصرين مختلفين كلّ الاختلاف أن يكون مجدّداً في تفكيره ومناهج شعره، لأن الاسلام الذي أدركه حسّان قد أثّر في شعره وهذا التأثير وإن لم يكن قويّاً وفاعلاً نظراً لعدم قدرة حسان على التخلّي عمّا علق في نفسه من رواسب الجاهلية، فإنه ولا شك قد ساعد حسّان على التجديد وأمدّه بمعانٍ جديدة لم يكن ليقدر على ولوجها لولا إدراكه الاسلام، واطّلاعه على القرآن وإيمانه بالتعاليم الدينية الجديدة، وأوّل ما يمكن أن نطلع عليه من ذلك التجديد هو أمران:

الأمر الأول: النقائض التي كان أوّل مَن وضع أُسسها وساهم في تطويرها لتتسع فيما بعد على أيدي شعراء المثلث الأموي.

الأمر الثاني: الشعر الديني الذي تأثّر بمضمونه الجديد وحاول أن يصوره في شعره ما أمكن.

إذاً، فالنقائض هي ذلك الشعر الذي يمكن تسميته «بالشعر السياسي» لأن النقائض إنّما كانت تأييد القبيلة في مختلف شؤون حياتها العامة فهي تشمل السلم والحرب وتشيد بمآثر القبيلة وتفخر بأمجادها وتستهين بأمر أعدائها وتنال منهم عن طريق التجريح وذكر المثالب أمّا الشعر الديني، فهو ذلك الشعر الذي نظمه حسّان بعد الاسلام وحاول به أن يردّ على خصوم العقيدة، وقد ضمّنه حسان بعض ما يدعو إليه الاسلام، ولكنّه لم يتخلّ فيه أيضاً عن الدفاع عن العقيدة بما يناسب أعداء الاسلام، فالشعر الديني يتضمن إذاً إلى جانب إظهار أبعاد الدعوة الاسلامية آفاقاً سياسية أخرى فهو لم ينفصل عنها بل حاول حسّان أن يجمع بين الدين والسياسة وهذا الجمع أمرٌ مفروض ومحتم لأنّ الاسلام، كان لا يفرّق بين الدين والسياسة فهما فيه أمرٌ واحد، وخاصة في عصر الرسول الذي كان النبيُّ ﷺ القائد والمعلم والموجه والمرشد، أمّا أغراضه وفنونه الشعرية الأخرى فهو وإن التقى مع «غيره في كثير من معانيه أو شابهه في مناهجه فإنه لم يقصد إلى اتباع أحد في شيء من ذلك، ولكنه وجد في قومه عدّة الفخر وآلته فاستملى منهم صورة وكَتَبَ آياته. ولن تجد في معاصريه من يساميه فخراً، أو يشعر بحقه فيه شعوره» وهكذا يبدو أن الفخر كان «محور شعره وقطب رحاه وغرضه الأصيل وفنه المحبوب، ومنه امتدت

لمحات الجمال إلى شعره، وسرت نفحات القوّة والجزالة في أوصاله»[1].

أمّا غزل حسّان الذي كان يفتتح به قصائده ومن ثم ينتقل بعد إلى ذكر الغاية المرجوّة من فخر ومدح إلى غير ذلك من الفنون، فإنه كان شعراً رقيقاً نلمح فيه آثار الحضارة وشفافية العيش المنعم، فقد قدّر لحسّان أن ينتقل إلى خارج بيئته ويتعرّف على حياةٍ بعيدة عن حياة البداوة. وقد أكسب كل ذلك حسّان الرقة والجمال وصفاء المعاني أمّا بقية الاغراض الشعرية فإنّ حسّان قد حاول أن يلمّ بها ولكن طبيعته وقبليته فرضت عليه اتجاهاً من القول فأكثر فيه، ومع ذلك فإنه بإمكاننا أن نرى في شعره المدح والرثاء والشعر القصصي، إلّا أنّ ذلك كان قليلاً في شعره، رغم أنّ الرثاء كان له نصيب لا بأس به في شعره ولكنه لم يكن ليبلغ فيه فخره وغزله وأوصافه.

معانيه..

إذا حاولنا أن نتتبع معاني حسان الشعرية فإننا سوف نلاحظ أثر الحياة بادياً في تلك المعاني، فقد كان حسّان غزير المعاني خصيب الخيال، و كان اهتمامه بالغوص على المعاني أشدّ من اهتمامه بتخيُّر اللفظ الرائق وإجادة التأليف وحلاوة النغم، وهذا أمر مألوف في بداية عصور التطور وأزمان

(١) د. محمد طاهر درويش حسّان بن ثابت ص٤٦٥ .

النهضات، إذ أن الشغل الشاغل للشعراء في مثل هذه الأوقات هو إظهار المعاني ومحاولة توصيلها إلى الناس بمختلف الطرق، وقد قلنا: إن حسان قد أدركِ الإسلام وآمن بالدعوة المباركة، ولذلك فإنّه حاول أن يقدّم معاني هذه الدعوة ما أمكن في أشعاره إلى الناس، وحسّان في معانيه يتأرجح بين الفطرة والتجديد فهو في معانيه متّبع ومجدّد، مقلّدٌ ومبتكر، وهو فيها إمّا متأثر بأجواء الحياة البدوية، وإمّا مستقٍ من حياة الحضارة الجديدة، وكان في معانيه الشعرية يعتمد على إبراز الحقيقة وجلاء معانيها وإظهارها بالصورة القادرة على الافصاح والتعبير، فهو يستعمل في سبيل ذلك الإظهار مختلف الصور الفنية من تشبيه واستعارة وتمثيل، وقد أمدّه خياله الذي اتّسع بمواكبة الحضارة والدين الجديد بكثير من الصور الفنّية الجديدة، فمن معانيه الفطرية التي تصوّر الواقع قوله:

فوقفت بالبيداء أسألها
أنّى اهتديت لمنزل السفرِ
والعيسُ قد رُفضت أزمتها
ممّا يرون بها من الفترِ
وعلت مساوئها محاسنها
ممّا أضرَّ بها من الضُّمرِ

كـنّـا إذا ركـد الـنـهـارُ لـنـا
نـغـتـالـه بـنـجـائـب صُـعـرِ
عـوجٍ نـواج يـعـتـلين بـنـا
يـعـفـيـن دون الـنصّ والـزجـر
مـسـتـقـبـلات كـلّ هـاجـرة
يـنفـخْـن فـي حـلقِ مـن الـصـعـر
وسـمـا عـلى عـودٍ فـعـارضـنـا
حـربـاؤهـا أوهـمّ بـالـخـطر
وتـكلّفـي الـيـوم الـطويـل وقـد
صـرّت جـنـادبُـهُ مـن الـظُّهـر

ففي هـذه الأبيات لا تـرى إلّا صـورتين صـادقتين، أولاهما للركب في البيداء حيث العيس قد أضناهـا السفر وحيث الحرّ الشديد الذي يجعل المسافرين يكابدون كثيراً من العنـاء والمشقات، وأخـرى للركب على النجائب القـويـة النشيطة السريعة وهم يقطعون الفلوات بصبر وعزيمة، فهاتان الصورتان تدلّان على ما يريد الشاعر بأوضح الصور الغنيّة بالمشاهد والألوان ومن جميل تصويـره للواقع قـوله يصف الصحراء:

والـلـيـلة الـظلمـاء أدلـجـهـا
بـالقـدم في الـديمـومـة القفـر

ينعى الصّدى فيها أخاه كما
ينعى المفجّع صاحب القبر
وتحولُ دون الكفّ ظلمتها
حتى تشقّ على الذي يسري

فهو يصور الصحراء في شدّتها وعبوسها ورهبتها مستعيناً بالتشبيه الذي يحاول فيه أن ينقل المعنى بما فيه من رهبة وخوف وظلمة شديدة تزيد في ذلك وتجعل الإنسان في ترقب وحذر، وربّما نجد في البيت الثالث صورة معنوية موافقة لما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها.

من صوره المتحركة وصفه لقاء جيش المسلمين والمشركين في بدر إذ يقول:

غداة كأنّ جمعهُمُ حراءٌ
بدت أركانُهُ جنح المغيب[1]
فلاقيناهم منّا بجمع
كأسد الغاب من مردٍ وشيب
بأيديهم صوارم مرهفاتٌ
وكلّ مجرّب خاظي الكعوب[2]

---

(١) حراء: جبل بمكة.
(٢) خاظي الكعوب: صلابها.

وممّا أحسن فيه التشبيه قوله:

كـأنّ خـبـيئـةً مــن بـيــت رأسٍ
يـكــون مــزاجـهــا عـســلٌ ومــاء
عـلى أنـيــابـهــا، أو طـعـم غضٍّ
مـن الـتّـفــاح هـصَّــرهُ اجـتـنــاء

وقوله: في التعبير عن جمال العين:

لهـا عـينٌ كحلاءِ المـدامـع مُـطفـلٍ
تـراعي نعامـاً يـرتعي بـالـخـمـائـل

وقوله في وصف ما تحدثه البغضاء في النفوس وما تثيره من جفاء وحقد:

وقــومٍ من البغضــاء زورٍ كــأنّمــا
بـأجـوافهم ممّــا تُجنُّ لنـا الجمــرُ
يجيش بمـا فيهـا لنــا الغليُ مثلمـا
تجيش بمـا فيهـا من اللّهب القــدر

وقولِه الذي يمثّل فيه مازجاً التهكّم في السخرية:

لــو أنّ اللؤم ينـسبُ كــان عـبــداً
قبيــح الــوجــه أعــور مـن ثقـيف

وقوله الذي يكثر فيه من الاستعارة:

فنحن الذّرى من نسل آدم والعُـرى
تـــربّـع فينــا المجـد حتى تــأثّــلا

بنى العزّ بيتاً فاستقرت عمادُه
علينا فأعيا الناس أن يتحوّلا

وقوله الذي يكنّي فيه:

وكان أبو سرْحٍ عقيماً فلم يكن
له ولدُ حتى دعيْت له بعدُ

فحسانٌ في صوره الشعرية تلك يحاول أن يجدّد في المعاني عن طريق التشبيه والتمثيل والكناية والاستعارة، وقد جاءت تلك الأدوات عفوية ولم تكن مفتعلة، فأضفت على الصور جمالاً وحركة وساعدت المعنى على بلوغ أهدافه ومراميه.

لُغَتَه

لا شك في أن للّغة دورها الهام في التعبير عن حاجات النفس ورغبات المقاصد، فاللغة وسيلة من وسائل التعبير والايصال، وبقدر ما تكون اللغة قويّة واضحة بقدر ما تحقق الوفاء بعملية الايصال، لأن الكلام لغة ومعنى، وتجانس اللفظ مع المعنى كفيل بأداء الايصال السّليم إلى الغير وحسّان في أشعاره حاول أن يستعمل الكلام المناسب في المكان المناسب فهو في فخره مثلاً نراه يستعمل اللغة القويّة الجزلة التي تحرّك في النفس الشعور بالعزّة والمنعة والثقة فالمعنى الضخم يستوجب اللغة الضخمة والمعنى الرقيق يستوجب

اللغة الرقيقة، ولذلك نرى حسّان في غزله وفي رثائه يستعمل الألفاظ السهلة الرقيقة المؤثرة التي تظهر مدى التأثر وتحمل رقيق المشاعر وسلاسة التعبير.

والمتتبّع لشعر حسان يرى أنه كان يتحرّى فيه المساواة بين اللفظ والمعنى ويتجافى الغريب المستكره من القول وبخاصة في شعره الإسلامي، وكان لشعره في الجملة ذلك التناسق النغمي الذي يمكن أن نستشعرَ دفئه ونحسّ بهدوئه وسكونه، وهو يلائم بين موضوعات شعره وبين اللغة التي تعبّر عن تلك الموضوعات ملاءمة نلمح فيها الحرص على إيصال المعنى بدقة وقدرة وفعالية فأسمع إذ يقول: (١)

أقمنا على الرّس النزيع لياليا
بأرعن جرّارٍ عريض المبارك(٢)
بكل كميتٍ جوزُهُ نصف خلقه
وقبٍّ طوالٍ مشرفات الحوارك(٣)
ترى العرفج العاميّ تذوي أصوله
مناسم أخفاف المطيّ الرَّواتك(٤)

---

(١) ديوانه ص١٧٠ .

(٢) الرَّس: البئر، والنزيع: القريبة القعر، والأرعن: الجيش العظيم.

(٣) الكميت: الفرس الذي لونه بين السواد والحمرة، وجوزه: نصفه، والقب: الضامرة من الخيل. والحوارك: أعلى الكواهل.

(٤) العرفج: شجرة قدر ذراع أو أكثر، والرواتك: ضروبٌ من السّير.

إذا ارتحلوا عن منــزلٍ خلت أنــه
مـدمّن أهـل المـوسم المتعـارك[1]
نسيـرُ فـلا تنجـو اليعـافيـر وسـطنـا
ولـــو والت منّـا بشـــدٍّ مـواشـــك[2]
ذروا فلجـات الشام قـد حال دونهـا
خـراب الأفواه المخـاض الأوارك[3]

فحسان في هذه الأبيات يحاول أن يدخل الرعب إلى جيوش المشركين بحيث نراه يستعمل الألفاظ الضخمة التي تحمل الهول وتظهر القوّة وتبين الكثرة، وهي ألفاظ تحمل كلّ معاني القوّة القادرة على الأخذ والتهويل، فهو هنا يتخيّر ألفاظه تخيّراً يتناسب مع الحالة الصدامية التي يمكن لها أن توهن من قوى الخصوم وتفتّ من عضدهم ومواجهتهم وتحمـل إلى قلوب أفراد ذلك الجيش الهلع والخوف والشروع إلى الهرب أو التسليم، فالحرب إضافةً إلى كونها حربٌ بأدوات معيّنة، إلاّ أنها تتأثر بالمؤثرات النفسية التي تحملها الكلمات وتعبّر عنها الألفاظ.

وإذا حـاولنا أن نستجلي تـواءم الألفاظ مـع معانيهـا

(١) مدمّن: من الدّمن وهي آثار الأوساخ والأبعار.
(٢) اليعافير: الظباء، والمواشك: السريع.
(٣) الفلجات: جمع فلجة وهي ما شقّ من الديار، والأوارك: المقيمة في شجر الآراك.

وخصوصاً في مواضع الفخر والغزل والرثاء، فإننا سوف نلاحظ حسّان في فخره يستعمل كلّ الألفاظ القادرة على إظهار الفخر الذي يستعلي فيه على الخصوم، فهو في ألفاظه يذكر الأمجاد التليدة والأنساب الرفيعة والأفعال الكريمة ويعمل جهده على تأصيل ذلك في قومه عن طريق الألفاظ المناسبة والجامعة لك خصائص الفخر الجاهلي وقيمه المعنوية والمادية فاسمعه وهو يفتخر بقومه(١):

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامرٍ
لنا شرفٌ يعلو على كلّ مرتقي
رسا في قرار الأرض ثم سمت له
فروعٌ تسامي كلّ نجمٍ محلّق
ملوكٌ وأبناء الملوك كأنّنا
سواري نجومٍ طالعات بمشرق
إذا غاب منها كوكبٌ لاح بعده
شهابٌ متى ما يبدُ للأرض تشرق
لكلّ نجيبٍ منجبٍ زخرت به
مهذّبةٌ أعراقها لم ترهق(٢)

فإنّك في هذه الأبيات تدرك كيف استطاع حسّان

(١) ديوانه ص١٦٦ .
(٢) لم ترهّق: لم تدنّس.

بكلماته أن يبني مجداً من الشرف سقفه الفضاء الرحب والقوّة القادرة والنسب الأصيل والعزّ الدائم المتأصّل في الآباء والأبناء عن طريق الأعراق الكريمة والأنساب الصافية، ثم اسمعه أيضاً في غزله حيث يقول:[1]

منع الندم بالعشاء الهموم
وخيالٌ إذا تغور النجوم

من حبيبٍ أصاب قلبك منه
سقمٌ فهو داخلٌ مكتوم

بالقوم هل يقتل المرء مثلي
واهنُ البطشُ العظام سؤوم[2]

همّها العطر والفراش ويعلوها
لجينٌ ولؤلؤٌ منظوم

لو يدبّ الحوليّ من ولد الذرّ
عليها لأندبتها الكلوم

لم تفقها شمس النهار بشيءٍ
غير أن الشباب ليس يدوم

فهو في هذه الأبيات يذوب رقة وهوىً، وتتزاحم الكلمات مطواعة تبين لنا لواعج الحب وأشواق المحب، فإذا

---

(١) ديوانه ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢) الواهن: الضعيف والسؤوم: المَلول.

بحسّـان إنسانٌ يقتله العشق ويقف أمام من يحب منهزمـاً مسلماً له مطيعاً للجمال لا يستطيع أن يقاوم إغراءاته المادية والروحية، ولا بدّ لنا ونحن نقرأ أبياته أن ندرك كيف أن كلماته قد رقّت وذابت واستطاعت أن تنقل إلينا حالة نفسه التي لم تكن بعيدة عن حالة كلماته، ثم اسمعه في رثائه لتدرك في النهاية أنّ حسان قد عبّر عن كلِ غـرضٍ من أغراضـه بما يتناسب من القول، يقول حسّان:(1)

مـا بال عينـك لا تنـام كـأنّمـا
كحلت مـآقيهـا بـكحـل الأرمـد
جـزعاً على المهـديّ أصبح ثـاويـاً
يـا خير من وطىء الحصى لا تبعـدِ
جنبي يقيـك التـرب لهفي ليتنـي
غيِّبت قبلك في بـقيـع الـغـرقـد
أأقيم بـعـدك بـالـمدينـة بينهم؟
يـا ليتني صبّحـت سمّ الأسـود(2)
أو حـلّ أمـر الله فـينـا عـاجـلاً
في روحـةٍ من يـومنـا أو في غـد
يـا بـكـر آمنـة الـمبـارك ذكـرُهُ
ولـدتـك مُحصنـةً بسعـد الأسعـدِ

---

(1) ديوانه ص٥٧ ـ ٥٨ .
(2) صبَّحت: أي شربت.

نــوراً أضــاء على البــريــة كلّهــا
من يهــد للنــور المبــارك يهتــدِ

وهكذا فإنّ ألفاظ حسان تتناسب وموضوعاته الشعرية، فهو يختار لقصائده من الألفاظ ما يجعلها تؤدّي دورها من الايصال والتأثير، فلكل غرضٍ من أغراضه كلمٌ يناسبه، وهو في جميع أغراضه يوائم بين اللفظ والمعنى بحيث لا يفوته الجمال ولا تعوزه الرقة والرهافة..

بحوره وأوزانه..

لا شك في أن إيصال المعنى لا يتمُّ عبر الألفاظ فقط بل هناك ما يزيد في الايصال حلاوةً ونغماً، فالموسيقى المنبعثة وخاصة في الشعر من خلال البحور والأوزان تستطيع أن تساهم بقدرٍ كبيرٍ في عملية الإيصال والتعبير، فقد يكون المعنى الذي يتحدّث عنه الشاعر بليغاً وعميقاً ولكنه لا يلبسه الثوب الرقيق الناعم القادر على إظهار ذلك المعنى بأجمل الحلل من الألفاظ والأوزان، والذي يطالع الشعر العربي القديم يدرك أن البحور المستعملة بكثرة هي: الطويل والكامل والوافر والبسيط والخفيف وهذه البحور يمكنها بما فيها من المرونة والسلاسة أن تعبّر عن جميع الاحساسات، ولذلك فإن أكثر الشعر العربي جاء منظوماً في دائرة هذه البحور وخاصة الطويل منها، وقد أكثر حسّان من هذا البحر

في أشعاره وخاصة التي يفتخر فيها ويصف لأنّ هذا البحر أصلح البحور للتعبير عن مثل هذه المواقف وحسّان في شعره كان مجارياً لشعراء عصره يأخذ ما يأخذون ويترك ما يتركون فكانت البحور المستعملة عنده بكثرة هي الطويل والكامل والبسيط والوافر، ويليها المتقارب والخفيف والرمل والسريع ولم ينظم من المديد والهزج والمضارع والمنسرح والمجتث وغيرها وكان أكثر من ثلث شعره في الجاهلية والإسلام من الطويل.

والمراجع لقصائد حسّان وموضوعاتها يدرك أنّ حسان قد لاءم بين موضوعات شعره وأوزان بحوره، فهو في المناسبات التي تتطلّب فخراً وقوّة ووصفاً نراه يستعمل الطويل والبسيط، ولكنه في الموضوعات التي تتطلّب رقة وغزلاً وشفافية فإنه قد استعمل البحور المناسبة لها كالخفيف والوافر والرّمل، وهما من أهمّ البحور التي مال إليها الشعراء قديماً وحديثاً للتعبير عن الانفعالات والعواطف لما فيها من جنوح إلى السلاسة والرقة.

والملاحظ أن حسّان لم يلجأ إلى استعمال البحور القصيرة في أشعاره على الرغم من أنّه أضطر إلى الإرتجال، فلا نجده يرتجز، ولكنّنا نرى أنه كان يميل إلى المقطوعات القصيرة عند استعماله البحور القصيرة الوزن، وآثر أن

يستعمل البحور التي تفي بالغرض في الموضوعات التي تتطلّب سروحاً طويلاً وجولةً تتشابك صورها وتتضامن لتؤلف لوحة شعرية متعدّدة الرؤى والأغراض.

أثر القرآن في شعره:

لا شك في أن حسّان قد تأثّر بالبيئة التي عاشها على غرار جميع الشعراء الذين تترك فيهم المؤثرات المتعدّدة بصمات لا بد أن نلمحها في أشعارهم، وحسّان ابن المدينة المنورة التي كانت بيئتها تمثل بيئة نعيم وترف وحضارة، فقد تركت فيه تلك البيئة أثراً بالغاً كما أنّ رحلاته إلى خارج حدود تلك البيئة وخاصة إلى الحيرة وبلاد الشام قد تركت فيه أيضاً آثاراً هامة وجعلته يطّلع على ما في هاتيك البيئتين من ترف ونعيم وحضارة مادية، وهذا ما أضاف إلى خياله كثيراً من الصور، وجعله يحلّق في أفق أرحب وفضاء أشمل، ويمكنك أن تلاحظ شغفه بهذه البيئة الجديدة في قوله:[1]

لعمري لحرثٌ بين قفٍّ ورملةٍ
ببرثٍ علت أنهارُهُ كلّ مخرم[2]
لدى كل بنيانٍ رفيع ومجلسٍ
نشاوى وكأسٍ أخلصت لم تصرم[3]

---

(١) ديوانه ص٢٣٢ .

(٢) البرث: الأرض اللينة السهلة، المخرم: الطريق في الجبل.

(٣) تصرّم: تنقطع.

أحبُّ إلى حسّـان لـو يستـطيعُـهُ
من المرقصاتِ من غفارٍ وأسلم(١)

وقد جعله الشغف بمثل هذه البيئة الجديدة يتجه إلى الاقلال من وصف بيئة البادية ولذلك فإنه لم يجر على ما جرى عليه الشعراء من الإكثار لوصف الفرسِ والناقة والظبي وحيوانات الصحراء ومظاهرها المادية، ونراه في شعره يكثر من ذكر الخمر وأماكنها وشرّابها وتأثيرها ويعيّر البدو جفاء حياتهم وشربهم ألبان الماعز وابتعادهم عن أبواب الماجدين فيقول:

من جـذم غسّان مسترخٍ حمـائلهم
لا يُغبقـون من المعـزى إذا آبـوا
ولا يـذادون محمـراً عيـونُهُـمُ
إذا تُحضِّر عنـد المـاجد البـاب
كـانوا إذا حضـروا شيب العقار لهم
وطيف فيهم بـأكـواس وأكـواب(٢)

واستمع إليه في هذه الابيات التي يصف فيها مجلس لهوٍ شهده، فيقول: (٣)

(١) المرقصات: الإبل المحمولة على السّير، وغفار وأسلم: قبيلتان.
(٢) في البيت إقواء أي اختلاف حركة الروي عن حركة ما قبله.
(٣) ديوانه ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

ربّ لـهـو شهـدتُـهُ، أمَّ عـمـروٍ
بـين بـيضٍ نـواعم فـي الـرِّيـاط
مـع نـدامى بيض الـوجـوه كـرامٍ
نُبِّهـوا بعـد خفـقـةِ الاشـراط(١)
لـكـمـيـتٍ كـأنّـهـا دمُ جـوفٍ
عُـتِّقـت مـن سـلافـة الانـبـاط
فـاحتـواهـا فتىً يُهين لهـا المـال
ونـادمـت صـالـح بـن عـلاط
ظـلّ حـولـي قيـانُـهُ عـازفـاتٍ
مـثـل أدمٍ كـوانسٍ وعـواط(٢)
طفن بِـالكـأس بين شـربٍ كـرامٍ
مـهّـدوا حـرًّ صـالـح الأنـمـاط

فـإنه في هـذه الأبيات التي يصف فيهـا مجلس لهوٍ وشراب، نراه يحنّ إلى حياة الترف والنعيم بعيداً عن حياة البادية الجافة، وكيف لا يأنس بتلك الحياة وهو يغتبق الخمرة وحوله الندامى والكـواعب الحسان والعازفات اللواتي يدخلن إلى القلب السّرور. بجمالهن وعزفهن وحسن معاملتهن حيث

(١) الأشراط: أي آخر الليل.
(٢) الكوانس: ما كان في الكناس وهو بيت الظبي، والعواطي: التي تعطو بأعناقها أي تمدّها.

الحضارة هذّبتهن وحوّلت مجالسهن إلى مجالس للأنس والسمر والسرور.

وهكذا فإن رحلات حسان وانتجاعه أماكن الحضارة في عصره وجوّ المدينة لم يخلُ من اللهو والترف قد أثر جميع ذلك في شعره وجعله رقيقاً عذباً، ويمكن لنا أن نلاحظ ذلك في كلّ قصائده التي لم تخلُ من إشارة إلى حياة اللهو والنعيم حيث نلمح ذلك حتى في وصفه المطر حيث يقول:

عسجن بأعناق الظباء وأبرزت
حواشي برود القطر وشياً منمنما

وفي وصفه لنساء الرسول في حزنهن حيث يقول:

مثل الرواهب يلبسن المسوح وقد
أيقنّ بالبؤس بعد النعمة البادي

وأخيراً ننتهي إلى القول بأنّ حسّان قد استفاد من رحلاته وأثرت الحضارة في أخلاقه ومعاملته، فغدا صاحب الطبع السمح والذوق المرهف، والخيال الواسع، فساعده ذلك على ابتداع الصور الجميلة والابتعاد عن الغريب الجافّ المعقّد.

أثر القرآن في شعره:

لقد شهدت الحياة العربية نقلة واسعة بعد مجيء الاسلام وانتشار الدعوة المباركة، حيث نرى الإسلام قد أحيا

في النفـوس التطلّع إلى أبعـاد جـديـدة ومفـاهيم جـديـدة وحضارات جديدة لم يكن العرب قد اعتادوا عليها كما أنه غرس فيها مفاهيم وقيم وشرائع جديدة كان لها أبعد الأثر في ذلك التغيير الذي أصاب حياة العرب. ولا شك فإن حسّان ابن البيئة الإسلامية الجديدة وأحد الشعراء الذين عاصروا الدعوة الإسلامية ونصروها بلسانهم النصر العظيم كان ممّن تأثروا بتلك الدعوة وتمسكوا بتعاليمهـا وقيمها في أشعـاره الاسلامية، وقد أكثر حسّان في أشعاره من اقتباس الآيات القرآنية وتضمينها قصائده، وسوف نستعرض بعضاً من أبيّاته لنلمح فيها ذلك التأثر: يقول حسان:

فـاذهب خُبيب جـزاك الله طيّبـةً
وجنّـة الخلد عند الحـور في الـرفق

فقد أخذ معنى قوله من الآية المباركة:

«وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون جـزاءً بما كـانوا يعملون» وأخذ معنى وجود الملائكة على جوانب السّماء في قوله:

مـاذا تقـولـون إن قـال النبيّ لكم
حين المـلائكـة الابـرار في الأفق

مـن قوله تعالى:

والملكُ على أرجائها، ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية.

وفي قوله:

مـصـدّقـاً للنبيّـين الأُلـى سلفـوا
وأبـذل الناس للمعـروف للجادي[1]

فقد أخذ معناه من قوله تعالى:

«مصدّقاً لما بين يديه من الرّسل».

وفي قوله:

عَـزيزٌ عليـه أن يحوروا عن الهـدى
حـريصٌ على أن يستقيموا ويهتـدوا
عــطوفٌ عليهم لا يثني جنــاحــه
إلى كنـفٍ يحنـو عليهـم ويمـهــدُ

فقد أخذ معناه من الآية الكريمة:

«لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم».

وفي قوله:

نـبيٌّ أتـــانــا بـعــد يـــأس وفـتـرة
من الرسل والأوثان في الأرض تعبد

(١) الجادي: طالب المعروف.

أخذه من قوله تعالى:

«يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترةٍ من الرسل»

وهكذا فإننا في هذه الأمثلة التي اقتطفناها من كثير أمثالها نستطيع أن نقف على تأثر حسّان بالقرآن الكريم والأخذ من معانيه المباركة وتضمينها لأشعاره، وكان حسّان بهذا التأثر الكبير الواسع رغم قلّة الزمن الذي عاشر فيه الدعوة واحداً من أبرز الشعراء الذين استلهموا تعاليم الدعوة الجديدة حتى انه قد بلغ في ذلك شوطاً بعيداً لم يستطع أن يبلغه أحد غيره من المعاصرين وبذلك يكون قد فتح الطرق أمام الشعراء لاستلهام الآيات القرآنية وتزيين الأشعار بقبسٍ من نورها المبارك.

منزلته:

لا شك بأنّ حسّان كان واحداً من الشعراء الذين تركوا في الشعر تراثاً ضخماً وأثراً بالغاً، وهو كغيره من الشعراء له وعليه، فالشعر الثرُّ الغزير لا يمكن أن يكون في مجمله على مستوىً واحدٍ من النظم، ففي الشعر الجيد والرديء والغالي والرّخيص إذا ما تصفّحنا أشعاره فإننا سوف نقع فيها على المنظوم الجيد، كما سنقع فيها على كثير من المآخذ والعيوب، وهنا يطيب لنا بعد أن تناولنا شعر حسّان بالدرس أن

نذكر آراء النقاد والمعاصرين له لنقف على منزلته في عالم الشعر، لننتهي بعد ذلك إلى إصدار حكم لا نظلم فيه الرجل حقّه ولا نبخسه مقامه الرفيع وقد مرّ معنا كيف أن حسّان كان قد التقى النابغة وقد أنشده الأعشى والخنساء من بعده حيث قال لها النابغة: لولا أن أبا بصير أنشدني لقلت: إنك أشعر الناس، وكيف أنّ حسان قال له: «إنّي أشعر منك ومن أبيك» اعتداداً منه بشعره وثقةً منه بنفسه حيث كان النابغة قد قال له في موضع آخر «إنّك لشاعر» وقد قال الحطيئة: أبلغوا الأنصار أن شاعرهم: أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتّى ما تهرُّ كلابهم
لا يسألون عن السّواد المقبل

وقد جعله صاحب طبقات الشعراء واحداً من الفحول الخمسة الاسلاميين وقال منوِّهاً بشاعريته: «وأشعرهم حسّان بن ثابت هو كثير الشعر جيّده»[1].

وذكر الأصمعي حسّان بن ثابت وميَّز بين شعره في الجاهلية والاسلام فقال: «فحلٌ من فحول الجاهلية، فلما جاء الاسلام سقط شعره، وقال مرّة أخرى: شعر حسّان في الجاهلية من أجود الشعر»[2].

---

(١) طبقات الشعراء ص٨٧ .

(٢) الشعر والشعراء ص١١٨ .

ويرى مزرّد أخو الشماخ في حسان مثالاً للشاعر، ويستكثر على كعب بن زهير أن يدّعي لنفسه وللحطيئة سبقاً في ميدان القوافي، فأين هو من حسان بن ثابت؟ ويقول له:(١)

فلست كحسّان الحسام بن ثابتٍ
ولست كشمّاخ ولا كالمخبّل
فبؤسك أن خلّفتني خلف شاعر
من الناس لا أُلفي ولا أتنخّلُ(٢)

وقال أبو عمرو بن العلاء: أشعر أهل الحضر حسّان بن ثابت.

وقال أبو عبيدة: «أجمعت العرب على أن حسّان أشعر أهل المدر» وقال: «فَضَل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبيّ أيّام النبوة، وشاعر اليمن كلّها في الاسلام».

وقال أبو الفرج الأصبهاني: «حسان فحل من فحول الشعراء» وذكر أن شعره كان من مفاخر الأنصار على الشعراء:

هذه بعض الآراء في شعر حسان صدرت عن طائفةٍ من النقاد والشعراء وأهل اللغة، وهي جميعها آراءٌ تنوّه بفضله

(١) الشعر والشعراء ص٨٢ .
(٢) في البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروي عمّا قبلها.

ومكانته وتثبت أن لكلّ شاعر من الشعراء قصائد قد وفّق فيها وأجاد وأنّ له قصائد أخرى لم يحالفه التوفيق فيها لأسباب كثيرة، وحسّان يكفيه فخراً أنّه قد خلّف ذخيرة كبيرة من الشعر الجيد، واستطاع أن يستلهم في شعره كثيراً من الآيات القرآنية، وأن يكون رائد الشعر السياسي والديني وفاتح باب شعر النقائض، كما أنه كان من الشعراء المؤثرين في غيره، فقد تأثّر بأشعاره كبار الشعراء أمثال: الكميت بن زيد والفرزدق وجرير، كما أن شعراء الغزل في المدينة كالاحوص والعرجي وابن أبي ربيعة قد وقفوا جميعهم على غزله الرقيق واستقوا من منابعه الثرة، ويكفي حسّان بعد ذلك كلّه فخراً أن يكون شاعر الرسول وصاحبه والمؤيّد له بقلبه ولسانه، فقد استبق حسان الشعراء إلى اتباع مناهج الإسلام، وتخلّى في شعره عمّا ذمّه القرآن ونهى عنه الرسول الكريم، ووقف نفسه على خدمة الدعوة الجديدة فكان الشاعر المنافح عنها في كلّ موضع، فنال من أعداء الاسلام ما ناله المجاهدون منهم بالسيف والسّنان، وقد كان شعره وبالاً على المشركين وصاعقةً على أعداء الدين حتى استحق بجدارة أن يلقّب شاعر الرسول الكريم، فقدّمه الرسول على غيره من الشعراء وانتدبه لهجاء المشركين والذود عن أعراض المسلمين، وأقام له منبراً في مسجده ينشد من عليه الشعر، وقد دعا الرسول مراراً له وقال له: والله إنّ كلامك لأشدّ عليهم من وقع السّهام في

غلس الظلام، وفي موضع آخر قال: هجاهم حسّان فشفى واشتفى.

وهكذا فقد تبـوّأ حسّان منـزلةً رفيعـة في دنيا الشعـر والسياسة والدين، وقد كان إلى جانب ذلك صاحب أخلاق رفيعة و مزايا إنسانية رائعة، ورجل خلق وفضيلة وحسب ودين فكان لهذه الفضائل كلّها أثر في شعره، فاقتحم اسمه الممالك واجتاز القفار وزاحم فحول الشعراء، وقال في الفخر شعراً دوّى به الزمان، ثم لا بدّ أن نذكر له في النهاية فضل حمل لواء الرسالة واختيار الرسول لـه ليكون شـاعره الخـاص، وبهذا الفضل فقط يكفيه لأن يكون في مصاف كبار الشعراء على مدى العصور...

نمــاذج من شعــره

بطيبة رسم للرسول

قال رضي الله عنه يرثي
النبي، صلى الله عليه وسلم:

بِــطَيْبَــةَ رَسْمٌ للرّسُولِ وَمَـعْهَــدُ
مُنِيـرٌ، وَقَـد تَعْفُـو الـرُّسُومُ وتَهْمَـدُ
ولا تَنْمَحي الآيـاتُ مِن دارِ حُـرْمـةٍ
بهـا مِنْبَرُ الهادي الّـذي كـانَ يَصْعَـدُ
ووَاضِـحُ آيـاتٍ، وَبَـاقي مَعَـالِمٍ،
وَرَبْـعٌ لَـهُ فيـهِ مُصَلًّى وَمَسْـجِـدُ
بِهـا حُجُـراتٌ كـانَ يَنْـزِلُ وَسْـطَهَـا
مِنَ اللهِ نــورٌ يُسْـتَضَـاءُ، وَيُـوقَـدُ
مَعَـالِمُ لَمْ تُطْمَسْ على العَهْـدِ آيُهـا
أتَاهَا البِلَى، فـالآيُ منهـا تَجَـدَّدُ
عـرَفْتُ بِها رَسْمَ الـرّسول وعَهْـدَهُ،
وَقَبْـراً بِـهِ وَارَاهُ في التُّـرابِ مُلْحِـدُ

ظَلِلْتُ بها أبكي الرّسولَ، فأسْعدَتْ
عُيونٌ، وَمِثْلاَهـا مِنَ الجَفْنِ تُسعـدُ[1]
تَـذَكّـرُ آلاءَ الـرّسـولِ، ومَـا أَرَى
لَهَـا مُحصِياً نَفْسي، فَنفسي تبلَّدُ[2]
مُفجَّعــةٌ قَـدْ شَفَّهَــا فَقْـدُ أَحْمَــدٍ،
فَـظَلَّتْ لآلاءِ الـرّسـولِ تُـعَـدِّدُ
وَمَــا بَلَغَتْ منْ كـلّ أَمْــرٍ عَشِيـرَهُ،
وَلكِنّ نَفسي بَعْضَ مَـا فيـهِ تَحمَـدُ
أطـالَتْ وُقوفـاً تَذْرِفُ العَيْنَ جُهـدَها
عَلى طَلَلِ القَبْـرِ الّـذي فِيـهِ أحْمَـدُ
فَبُورِكْتَ، يا قبرَ الرّسولِ، وَبورِكتْ
بِـلادٌ ثَوَى فيهَـا الرّشيـدُ المُسـدَّد[3]
وَبُــورِكَ لَحْـدٌ منــكَ ضُمّنَ طَيّبـاً،
عَليــهِ بنــاءٌ من صفيــحٍ، مُنَضَّــدُ
تَهِيــلُ عَلَيْــهِ التُّــرْبَ أَيْــدٍ وأَعْـيُنٌ
عليـهِ، وقدْ غـارَتْ بِذلِـكَ أَسْعُدُ[4]

(١) أسعدت: أعانت.
(٢) تبلد: تتحير.
(٣) المسدد: الذي وفقه الله للسداد، أي الصواب.
(٤) تهيل: تصب. وقوله: وأعين، أراد وأعين تصب عليه الدمع.

لقـد غَيّبوا حِلْمـاً وعِلْمـاً وَرَحمـةً،
عَشِيّــةَ عَـلّوهُ الثّــرَى، لا يُـوَسَّــدُ
وَرَاحــوا بحُــزْنٍ ليسَ فيهِمْ نَبِيُّهُمْ،
وَقَــدْ وَهَنَتْ منهُمْ ظـهـورٌ وَأعضُــدُ
يُبكـون مَن تَبكي السّمواتُ يَـوْمَـهُ،
وَمَن قدْ بَكَتْهُ الأرْضُ فالناس أكمَدُ[1]
وَهَـلْ عَـدَلَتْ يَـوْمـاً رَزِيّـةُ هَـالِــكٍ
رَزِيّــةَ يَـوْمٍ مــاتَ فِيـهِ مُحَمَّــدُ[2]
تَقَــطَّعَ فيـهِ مَنْــزِلُ الـوَحْيِ عَنْهُمُ،
وقـد كـان ذا نــورٍ، يَغـورُ ويُنْجِــدُ
يَـدُلُّ على الرّحْمنِ مَنْ يَقتَـدي بِهِ،
وَيُنْقِـذُ مِنْ هَوْلِ الخـزَايَـا وَيُـرْشِـدُ
إمـامٌ لَهُمْ يَهْـدِيهمُ الحقَّ جَـاهِـداً،
مُعلِّمُ صِـدْقٍ، إنْ يُـطِيعـوهُ يسعَـدوا
عَفُـوٌّ عن الزّلّاتِ، يَقبـلُ عُـذْرَهُمْ،
وَإنْ يُحْسِنُـوا، فـاللهُ بِـالخَيْـرِ أَجْـوَدُ
وَإنْ نـابَ أَمْرٌ لم يَقـومـوا بِحَمْـدِهِ،
فَمِنْ عِنْــدِهِ تَيْسِيــرُ مَــا يَتَشَــدّدُ[3]

(١) أكمد: أحزن.

(٢) عدلت: ساوت. الرزية: المصيبة.

(٣) يتشدد: يتصعب.

فَبَيْنـا هُمُ فـي نِعْـمَـةِ اللهِ بَيْـنَهُـمْ
دليـلٌ بـه نَهْـجُ الـطّريقَـةِ يُقْصَـدُ
عزيزٌ عليْـهِ أَنْ يَحِيدوا عن الهـدَى،
حَـريصٌ على أن يَستَقِيموا وَيَهتـدوا
عَـطُوفٌ عَلَيْهِمْ، لا يُثَنّى جَنَـاحَـهُ
إلى كَنَفٍ يَحْنُـو عليهم وَيَمْهِـدُ[1]
فَبَيْنَـا هُمُ في ذلـكَ النّـورِ، إذْ غَـدَا
إلى نُورِهِمْ سَهمٌ من المَوْتِ مُقصِدُ[2]
فـأَصْبَـحَ محمُـوداً إلى اللهِ رَاجِعـاً،
يُبَكّيهِ جِفْنُ المُرْسَلاَتِ وَيَحمَدُ[3]
وَأَمستْ بِلادُ الحَرْمِ وَحشاً بقاعُهـا،
لِغَيْبَةِ ما كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعهـدُ[4]
قِفـاراً سِوَى مَعْمـورَةِ اللّحْدِ ضَـافَها
فَقيـدٌ، يُبَكّيـهِ بَـلاطٌ وغَـرْقَـدُ[5]

---

(١) الكنف: الجانب. يمهد: يوطىء.
(٢) المقصد: المصيب.
(٣) المرسلات: أراد الملائكة المستترة عن عيون الآدميين.
(٤) الحرم: مكة. وحشاً: قفراً.
(٥) الغرقد: ضرب من شجر العضاء، واسم مقبرة أهل المدينة لوجود هذا الشجر هناك.

وَمَسْجِدُهُ، فالموحِشاتُ لِفَقْدِهِ،
خَلاءٌ لَهُ فِيهِ مَقامٌ وَمَقْعَدُ
وبِالجَمْرَةِ الكُبْرَى لَهُ ثَمّ أَوْحشتْ
دِيارٌ، وعَرْصَاتٌ، وَرَبْعٌ، وَمَوْلِدُ
فَبَكّي رَسُولَ اللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً
ولا أَعرِفَنْكِ الدّهرَ دمعَكِ يَجْمَدُ
وَمَا لكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ الّتي
على النّاسِ مِنْها سابغٌ يَتَغَمّدُ(١)
فَجُودِي عَلَيْهِ بالدّموعِ وَأَعْوِلي
لِفَقدِ الذي لا مِثْلُهُ الدّهرَ يُوجَدُ
وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ،
ولا مِثْلُهُ، حتّى القِيَامَةِ، يُفقَدُ
أَعَفَّ وَأوْفَى ذِمّةً بَعْدَ ذِمّةٍ،
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً، لا يُنْكَّدُ(٢)
وَأَبْذَلَ مِنهُ للطّريفِ وَتَالِدٍ،
إذا ضَنّ مِعْطَاءٌ، بما كانَ يُتْلِدُ(٣)

(١) يتغمد: يستر.
(٢) النائل: العطاء. لا ينكد: لا يكدر.
(٣) الطريف: المال المحدث. التالد: المال القديم: يتلد: يتخذ من مال.

وأكرَمَ حَيّاً في البُيُوتِ، إذا انتمى،
وَأَكْـرَمَ جَـدّاً أَبْـطَحِـيّـاً يُـسَـوَّدُ
وأَمْنَـعَ ذِرْواتٍ، وأَثْبَـتَ في الـعُلى
دَعَـائِـمَ عِـزٍّ شَـاهِقَـاتٍ تُـشَـيَّـدُ
وَأَثْبَتَ فَـرْعـاً في الفُـرُوعِ وَمَنبِتـاً
وَعُوداً غَداةَ المُزنِ، فالعُـودُ أغيَدُ[1]
رَبَـاهُ وَلِيـداً، فَـاسْتَتَمّ تَـمـامَـهُ
على أَكْـرَمِ الخيرَاتِ، رَبٌّ مُمجَّـدُ
تَنَـاهَتْ وَصَـاةُ المُسْلِمِينَ بِكَفِّـهِ،
فَلَا العِلمُ مَحْبُوسٌ، ولا الرّأيُ يُفْنَدُ
أَقُـولُ، ولا يُلْفَى لِقَـوْلِي عَـائِـبٌ
منَ النّاسِ، إلّا عازِبُ العَقْلِ مُبعَدُ
وَلَيْسَ هَـوَائِي نَـازِعـاً عَنْ ثَنَـائِـهِ،
لَعَلّي بِـهِ فـي جنّـةِ الـخُلْدِ أخْـلُدُ
مَعَ المُصْطَفَى أَرْجُـو بذاكَ جِـوَارَهُ،
وَفِي نَيْلِ ذاكَ اليَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَـدُ

(١) أغيد: ناعم متين.

بأبي وأمي

وقال أيضاً يرثيه، ﷺ

مـــا بَـالُ عَينِــكَ لا تَنَــامُ كَــأَنَّمَــا
كُحِلَتْ مــآقِيهَــا بكُحْــلِ الأرْمَــدِ
جَزَعاً عَلى المَهْدِيّ، أَصْبَحَ ثَـاوِياً،
يـا خَيرَ مَن وَطِئَ الحصَى لا تَبعَـدِ
جَنْبِي يَقِيــكَ التُّــرْبَ لَهْفي لَيْتَنــي
غُيّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيــعِ الـغَــرْقَــدِ
بــأبي وأُمّي مَــنْ شَهِــدْتُ وَفَــاتَــهُ
في يَــوْمِ الاثْنَينِ النّبيُّ المُـهْتَــدِي
فَــظَلِلْتُ بَـعــدَ وَفَــاتِــهِ مُتَبَـلِّداً،
يــا لَهْفَ نَفسي لَيْتَنِي لم أُولَــدِ[1]
أأُقِيمُ بَعْــدَكَ بِــالمَــدِينَــةِ بَيْنَهُــمْ؟
يــا لَيْتَنِي صُبّحْــتُ سَمَّ الأسْــوَدِ[2]

---

(١) متبلداً: متحيراً.

(٢) صبحت: سقيت صباحاً.

أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَا عَاجِلاً
في رَوْحَةٍ مِن يَوْمِنا أَوْ في غَدِ
فَتَقُومَ سَاعَتُنَا، فَنَلْقَى طَيِّباً
مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ المَحْتَدِ[1]
يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكَ ذِكْرُهُ،
وَلَدَتْكَ مُحْصَنَةً بِسَعْدِ الأَسْعُدِ
نُوراً أَضَاءَ على البَرِيّةِ كُلِّهَا،
مَنْ يُهْدَ للنّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِ
يَا رَبّ! فاجْمَعْنَا مَعاً وَنَبِيَّنَا
في جَنّةٍ تَثْني عُيونَ الحُسَّدِ[2]
فِي جَنّةِ الفِرْدَوْسِ واكتُبْها لَنَا
يا ذا الجَلالِ وذا العُلا وَالسّؤدَدِ
وَاللهِ أَسْمَعُ ما بَقِيتُ بِهالِكٍ
إلّا بَكَيْتُ عَلَى النّبِيِّ مُحَمّدِ
يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النّبِيِّ وَرَهْطِهِ،
بَعْدَ المُغَيَّبِ في سَوَاءِ المَلْحَدِ
ضَاقَتْ بالأَنْصَارِ البلادُ فأَصْبَحتْ
سُوداً وُجُوهُهُمُ كَلَوْنِ الإثْمِدِ[3]

(١) الضرائب، الواحدة ضريبة: الطبيعة والسجية. المحتد: الأصل.
(٢) تثني: ترد وتدفع.
(٣) الإثمد: الكحل.

وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ، وَفِينَا قَبْرُهُ،
وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنا لَمْ يُجْحَدِ
وَاللهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ
أَنْصَارَهُ في كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صَلّى الإلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ
وَالطَّيِّبُونَ عَلى المُبَارَكِ أَحْمَدِ
فرِحتْ نصارى يَثربٍ ويهودُها
لَمّا تَوَارَى في الضّريحِ المُلحَدِ

الشهادة راحة

وقال يرثي حمزة بن عبد المطلب
حين قدمت بنته أمامة المدينة تسأل عن
قبر أبيها ومصرعه:

تسـائلُ عن قَـرْمٍ هِجانٍ سَميـذَعٍ،
لدى البَأسِ، مِغْوَارِ الصّبَاحِ، جَسورِ[1]
أخي ثِقَــةٍ يَهتـزُّ للعُــرْفِ والنّـدى،
بَعِيـدِ المَدَى، في النّـائِبـاتِ صَبـورِ
فـقُلْتُ لَـهــا إنّ الـشّـهَــادَةَ رَاحــةٌ
وَرِضْــوَانُ رَبٍّ، يـا أُمــامَ، غَفُــورِ
فـإنّ أباكِ الخَيْـرَ حمْزَةَ، فـاعْلَمِي،
وَزِيــرُ رَسُــولِ اللهِ خَــيْــرُ وزِيــرِ
دَعـاهُ إلـهُ الخَلْقِ ذو العَــرش دعـوَةً
إلـى جنّــةٍ يَــرْضَـى بِهَــا وَسُــرُورِ
فَـذَلِـكَ مـا كنّـا نُــرَجّي وَنَـرْتَجِي،
لِحَمْـزَةَ يَـوْمَ الحَشْـرِ، خيْـرَ مَصِيــرِ

---

(١) القرم: السيد المعظم. الكريم الحسب. السميذع: الشجاع.

فَـوالله لا أَنْسـاكَ مـا هَبّتِ الصَّبا،
ولأبْكِيَنْ في مَحْضَـرِي وَمَسِيـرِي
عَلَى أَسَـدِ اللهِ الّذِي كـانَ مِدْرَهـاً،
يَـذُودُ عَنِ الإسْـلَامِ كُـلَّ كَفُـورِ[1]
ألا لَيْتَ شِلوي، يومَ ذاكَ، وَأَعظُمي
إلـى أضْبُـعٍ يَـنْـتَـبـنَـنـي وَنُـسُـوِرِ
أَقُـولُ، وَقَـدْ أعلَى النَّعِيُّ بهُلْكِـهِ:
جَـزَى الله خَيْـراً منْ أَخٍ وَنَصِيـرِ

(١) المدره: زعيم القوم.

أفضل الأحياء

إنَّ الـذَّوَائِبَ مِنْ فِهْـرٍ وَإخـوَتِهِـمْ
قَـدْ بَيَّنُـوا سُنَّـةً للنَّـاسِ تُـتَّبَـعُ
يَـرْضَى بِهَا كـلُّ مَن كَانَتْ سَـرِيرَتُـهُ
تَقْـوَى الإِلَهِ وَبـالَأمْرِ الـذي شَـرَعُوا
قَـوْمٌ إذا حَـارَبُـوا ضَـرّوا عَـدُوَّهُمُ،
أَوْ حاوَلوا النَّفْعَ في أَشياعِهِمْ نَفعـوا
سجِيّـةٌ تلكَ منهُمْ غيـرُ مُحْـدَثَـةٍ،
إنَّ الخلاَئِقَ، فاعلَمْ، شـرُّها البِـدَعُ
لا يَـرْقَـعُ النّـاسُ مـا أَوْهَتْ أكفُّهُمُ
عِندَ الدِّفاعِ ، وَلَا يوهونَ مَا رَقَعُوا(١)
إن كان في الناس سبّاقونَ بَعْدَهُمُ،
فكُـلُّ سَبْـقٍ لأدْنَى سَـبْقِـهِمْ تَـبَـعُ
وَلَا يَضَنُّـونَ عَنْ مَـوْلًى بِفَضْلِهِمِ ،
وَلا يُصِيبُهُمُ فِي مَـطْمَـعٍ طَبَـعُ(٢)

---

(١) يريد أنهم أعزة.

(٢) الطبع: الوسخ والدنس.

لا يجهلُونَ، وَإن حـاوَلتَ جَهلَهُمُ،
في فَضْلِ أحلاَمِهِمْ عن ذَاكَ مُتّسَـعُ
أَعِفَّـةٌ ذُكِـرَتْ في الـوَحْيِ عِفّتُهُمْ،
لا يَـطْمعـونَ، وَلا يُـرْديهمُ الـطّمَـعُ
كم مِن صَـدِيقٍ لهمْ نالـوا كَرَامَتَـهُ،
ومِنْ عَـدُوٍّ عَليهِمْ جـاهِـدٍ جـدعــوا
أَعْـطَوْا نبيَّ الهُدى وَالبِرّ طـاعَتَهُمْ،
فَمَـا وَنَى نَصْرُهُمْ عنْـهُ وَمـا نَـزَعـوا
إن قالَ سيرُوا أَجدُّوا السيرَ جُهْدَهُمُ،
أَوْ قالَ عوجوا عَلَيْنَا ساعةً، رَبَعُوا[1]
مـا زَالَ سَيْـرُهُمُ حَتّى استقــادَ لهمْ
أَهْلُ الصّليبِ، ومَنْ كَانَتْ لـهُ البِيَعُ
خُذْ مِنْهُمُ ما أَتى عَفواً، إذا غَضِبُوا،
ولا يكُنْ همُّـكَ الأمـرَ الـذي مَنَعُـوا
فإنّ في حَرْبِهِمْ، فـاتْرُكْ عـداوَتَهُمْ،
شَرّاً يُخَاضُ عَلَيْهِ الصّابُ والسَّلَعُ[2]
نَسْمُـوا إذا الحرْبُ نـالَتْنا مَخَـالِبُها،
إذا الـزّعانِفُ منْ أَظفـارِهَـا خَشَعُـوا

(١) ربعوا: أقاموا.

(٢) الصاب والسلع: شجر مر.

لا فَخْرَ إنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوّهِم ،
وَإن أُصِيبُوا فَلا خُورٌ وَلا جُزُعُ
كأنَّهُمْ في الوَغى، وَالموْتُ مُكتَنِعٌ،
أُسْدٌ بِبيشَةَ في أَرْسَاغِهَا فَدَعُ[1]
إذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدِبُّ لهُمْ،
كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيّةِ الذَّرَعُ[2]
أَكْرِمْ بقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعتُهُمْ،
إذَا تَفَرّقَتِ الأهْوَاءُ وَالشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدَحِي قَوْمٌ يُؤازِرُهُ
فِيما يُحِبُّ لِسَانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فَإنّهُمْ أفضَلُ الأحْيَاء كلِّهِم ،
إنْ جَدّ بالنّاسِ جِدُّ القَوْل أَوْ شمعوا[3]

---

(١) المكتنع: الداني القريب. بيشة: مأسدة. الفدع: زوال الرسغ في اليد إلى وحشيها.
(٢) الذرع: ولد البقرة الوحشية.
(٣) شمعوا: مزحوا.

إذا غاب كوكب لاح شهاب

وقال يفتخر بنسبه

أَلَمْ تَـرَنـا أَوْلادُ عَمـرِو بنِ عـامِـرٍ،
لَنـا شَرَفٌ يَعْلُو على كـلّ مُـرْتقي[1]
رَسَا في قَرارِ الأَرْضِ ثمّ سمتْ لَـهُ
فُـرُوعٌ تُسـامي كـلَّ نَجْمٍ مُـحَلِّقِ
مُـلوكٌ وَأَبْـنَـاءُ الـمـلوكِ، كـأنّـنَـا
سَوَارِي نُجـومٍ طـالِعـاتٍ بِمَشْـرِقِ
إذَا غَـابَ منهـا كـوْكبٌ لاحَ بَعـدَهُ
شِهـابٌ متى ما يبْـدُ للأرض تُشـرِقِ
لِكُـلّ نجِيبٍ مُنْجِـبٍ زَخَـرَتْ بِـهِ
مُهَـذَّبَـةٌ أَعْـرَاقُهَـا لـمْ تُـرَهَّقِ[2]

---

(١) عمرو بن عامر: هو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء.
(٢) زخرت به: هو من قولهم: فلان زاخر أي كريم ملآن من الشرف. مهذبة أعراقها: أي النقية الخالصة من العيوب. أعراقها. أصولها. لم ترهق: لم تدنس.

كَجَفنَـةَ والقَمقامِ عمـرِو بنِ عامـرٍ،
وَأَوْلَادِ مـاءِ المُـزْن وَابنَيْ مُحَـرِّقِ[1]
وَحَـارِثَةَ الْغِـطْرِيفِ، أَوْ كابْنِ مُنـذِرٍ،
وَمثـلِ أبي قابـوسَ رَبِّ الخَوَرْنَقِ[2]
أُولئـك لا الأوْغـادُ في كـلِّ مـأقِطٍ،
يَـرُدّونَ شَـأوَ العـارِضِ المتـألّقِ[3]
بِـطعنٍ كإيـزَاغِ المخاضِ رَشـاشُه،
وضَرْبٍ يُزيلُ الهامَ من كلِّ مفرِقِ[4]
أَتَـانَـا رَسُـولُ اللهِ، لمّـا تَجهَّمَتْ
لهُ الأرْضُ، يرْميـهِ بها كـلُّ مُوفِقِ[5]

---

(١) جفنة: هو ابن عمرو أول ملوك الغسانيين. القمقام: السيد الكثير الخير الواسع الفضل. وأراد بأولاد ماء المزن: أولاد ماء السماء، وهو لقب عمرو مزيقياء لأنه كان يمون قومه في الجدب. محرق: لقب الجارث بن عمرو من آل جفنة لقب به لأنه أول من أحرق العرب في ديارهم.

(٢) حارثة الغطريف: أبو عامر أبي عمرو مزيقياء. ابن منذر: عمرو بن هند من المناذرة ملوك الحيرة. أبو قابوس: النعمان بن المنذر. الخورنق: قصره.

(٣) المأقط: المعترك. العارض: أراد الجيش الضخم. المتألق: الذي يبرق ما عليه من الحديد.

(٤) الإيزاغ: قذف الناقة ببولها.

(٥) تجهمت: تنكرت. الموفق، من أوفق السهم: وضع الفوق في الوتر ليرمي.

تُطَرِّدُهُ أَفنـاءُ قَيْسٍ وخِنـدِفٍ،
كتائبُ إن لا تغْدُ للرَّوْعِ تَطرُقِ[1]

فَكنّا لـهُ من سائِرِ النّاسِ مَعقِلاً
أَشَمَّ، مَنيعاً ذا شماريخَ شُهَّقِ[2]

مُكَلَّلَةٍ بِالمَشْرَفيِّ وَبِالقَنَا،
بها كلُّ أظمى ذي غِرارَين، أَزْرَقِ[3]

تَذُودُ بها عن أَرْضِها خَزْرَجيَّةٌ،
كأُسْدِ كَرَاءٍ، أَوْ كَجِنَّةِ نَمْنَقِ[4]

تؤازِرُهَا أَوْسِيَّةٌ مالِكِيَّةٌ،
رِقاقُ السيوفِ، كالعقائقِ، ذُلَّقِ[5]

نَفى الذَّمَّ عنّا كلَّ يَوْمِ كريهةٍ،
طِعانٌ كتضْريمِ الأباءِ المُحَرَّقِ[6]

---

(١) الأفناء: أراد الأخلاط. تطرق: من الطرق بالحصى، وهو ضرب من التكهن.

(٢) الضمير في كنا يعود إلى الأنصار. المعقل: الملجأ. الشماريخ، الواحد شمراخ: رأس الجبل. الشهق: العالية.

(٣) الأظمى: الأسمر، وأراد الرمح. ذو غرارين: ذو حدين.

(٤) كراء ونمنق: موضعان.

(٥) العقائق: الواحدة عقيقة، وعقيقة البرق: بريقه. الذلق: الماضية، السَّريعة السلة.

(٦) الأباء: القصب.

وإكـــرَامُنـــا أضْيـــافَنَـــا، ووفـــاؤنـــا
بمـا كَـانَ منْ إلٍّ علينـا وَمَـوْثِقِ[1]
فنحنُ وُلاةُ الناسِ في كلّ مـوْطنٍ،
متى ما نقُلْ في النّاسِ قَوْلاً نُصَدَّقِ
تُــوَفَّقُ في أحْكَـامِنَـا حُكمــاؤنــا،
إذا غَيْـرُهُمْ، في مِثْلِهـا، لم يــوَفَّقِ

(١) الإل: العهد.

ثبت المصادر والمراجع المعتمدة

في إعداد البحث

ابن قتيبة	الشعر والشعراء
ابن رشيق القيرواني	العمدة في صناعة الشعر ونقده
ابن سلام الجمحي	طبقات الشعراء
ابن هشام	السيرة النبوية
أبو الفرج الأصبهاني	الأغاني
المبرّد	الكامل في اللغة والأدب
ابن عبد ربّه	العقد الفريد
ابن عبد البرّ	الاستيعاب
أبو زيد القرشي	الجمهرة
القنوجي	أبجد العلوم
حسّان بن ثابت	ديوانه
محمد مصطفى هداره	الشعر العربي في القرن الأول الهجري
محمد طاهر درويش	حسان بن ثابت

فهرس الموضوعات

لا شـكّ أنّ القارىء العـربيّ بحاجـةٍ مـاسّـةٍ إلى الاطّـلاع على تراثـه الفكريّ العـظيم المتمثّـل بـالأدب والتـاريخ والفـلسفـة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلـك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلاّ لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّـزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامِعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يـوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ إلقرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعيـة. فكانت هـذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتـابتها مجمـوعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحَـرّوا فيها السـلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.